اعترافات نسوية سابقة

أم خالد

ترجمة: كوثر الفراوي

مراجعة وتعليق: تسنيم راجح



اعترافات نِسويَّة سابقة

أم خالد

ترجمة: كوثر الفراوي

مراجعة وتعليق: تسنيم راجح

من إصدارات مؤسسة السبيل

٢٠٢٢

إهداء

إلى أختي وابنتي وصديقتي.

إلى كل فتاةٍ تصلها هذه الكلمات..

لستِ وحدكِ، وهناك أمل.

المحتويات



عام ٢٠٠٩ نشر باحثون في جامعة بنسلفانيا الأمريكية ورقةً بحثيةً طويلةً تحت عنوان "لغز انحدار سعادة الإناث"[1]. الدراسة التي قُدِّمت نتائجها رصدت السعادة الشخصية للأفراد عبر إجابة أسئلة في استبياناتٍ عن مشاعر السرور والرضا عن الحياة والذات في عينات تزيد على ١٥٠٠ شخصٍ وتمثّل الشعب الأمريكي كل سنةٍ بين عامي ١٩٧٢ و ٢٠٠٤، وقد فاجأت الباحثين والقرّاء بنتائجها التي أظهرت أن سعادة الأمريكيين في انحدارٍ كبير إحصائيًا على مرّ العقود، والأغرب أنّ النساء اللواتي بدأن أكثر سعادةً ورضًا عن حياتهنّ في السبعينات من الرجال بتنَ اليوم أقل سعادة من جدّاتهنّ ومن أقرانهنَّ الرجال كذلك، رغم أنه -بحسب الباحثين- كان المتوقع هو العكس.

فالمرأة اليوم قد سارت طويلاً على طريق "تحررها" ونيل "حقوقها" و"تمكينها"، فكيف تكون تعيسةً مقارنة بجدّة جدّتها التي كانت هانئة مرتاحةً وإن لم تملك ربع ما تملكه هي؟

مما قاله الباحثون: "لقد كان تقدم المرأة عظيمًا على كثير من المستويات خلال العقود الأخيرة، لقد زاد التحصيل العلمي والتحكّم بالخصوبة والإنجاب، وارتفعت الرواتب وفتحت بوابات كثير من المهن الرجالية سابقًا أمام النساء، كما

(١) Betsey Stevenson, Justin Wolfers. The Paradox of Declining Female Happiness. American Economic Journal: Economic Policy. ٢٠٠٩;١(٢):١٩٠-٢٢٥. doi:١٠,٢٣٠٧/٢٥٧٦٠٠٤٥

خفف التقدم التكنولوجي من عبء العمل المنزلي، وكل ذلك مكّن تحرر المرأة في العائلة وفي سوق العمل، وإن كانت هذه التغيرات تدفعنا لتوقّع ارتفاع موازٍ في مؤشرات السعادة لدى النساء فإننا نجدها انخفضت بوضوح سواءً بشكل مطلق أو نسبياً بالمقارنة بالرجال."[1]

ادّعت النِّسوية التي ارتفعت أصوات موجتها الثانية عالياً في السبعينات أنها تريد الخير والراحة للنساء، بينما الذي حصل على أرض الواقع وبحسب الدراسة – التي صدّق نتائجها غيرها– يثبت العكس، ولعلّ التأمل في الواقع وفي نفوسنا يعيننا على حل اللغز الذي حار فيه الباحثون.

فالشابّة اليوم باتت تقضي أيامها ركضاً بين وظيفتها وحضانة ابنها وبيتها ومجلس صديقاتها وكذلك هاتفها وحسابات وسائل التواصل فيه، باتت مضطرةً لأن تعيش في كفاحٍ مستمرٍ لتكون المرأة المنجزة التي لم تعقها الأمومة عن طموحاتها، والتي ليست "ربة بيتٍ فقط".

بينما إحدى جدّات جدّتها كان يكفيها أن تستيقظ باكراً لتصلّي ثم تعجن خبز الفطور وتستمتع بعناق أبنائها وتأمّل الابتسامة على وجوههم ورؤية أثرها في عين زوجها وأسرتها، كان يكفيها أن تعمل ما عليها، كان يكفيها طريقها وما هو مطلوبٌ منها دون العيش في قلق أنها بذلك مظلومةٌ مقهورة لا حلّ لها إلا السخط والمنافسة التي تودي بالنفس نحو التعب والإرهاق.

ولا يعني ذلك أننا نحن كنساءٍ اخترنا التعاسة لنفوسنا، ولا أنّ أختكم كاتبة هذه الكلمات تتحدث من برجٍ متجاوز للحياة اليومية الواقعية التي باتت بلا شكّ أعقد

(١) المصدر السابق.

مما كانت عليه في الماضي، إلا أننا بحاجة للوعي بأسباب ما وصلنا إليه وتمييز المقبول منه عن المرفوض، فإحدانا اليوم معرّضة لآلاف الإعلانات والرسائل الإعلامية والاجتماعية عن ما ينبغي أن تكون عليه ومن ينبغي أن تشبههم ومن عليها أن تسبقهم ومن يضطهدها وما عليها أن تشتريه وما يعيبها أن تشبهه، وهي في ذلك كله مرهقةٌ لا تكاد تشعر أن كل الجهد الذي تبذله كافٍ أبداً، فهناك دومًا ذاك السقف الزجاجي، وذاك المنصب الأعلى وتلك المكانة الأفضل، ولو أننا رأينا ساعة من المرأة الريفية الغابرة التي ترقّع بنطال ابنها وتشتاق لعودة زوجها وتطير فرحًا حين تحفّظ صغيرها سورةً من القرآن أو تنهي بلمستها الخاصة صنع الكعك الذي علمتها أمها لتُقنا لجزءٍ قليلٍ من سكينتها.

المرأة اليوم أقنعت بأن عليها أن تكون كل شيء، وبأنها إن لم تكن كل شيء فإنها ليست أي شيء، عليها أن تكون ذات الجمال المستحيل، والأناقة العجيبة، ومواكبة الموضة، والشهادات العلمية الرفيعة، والثقافة المتنوعة، والسيرة الذاتية الطويلة.. إلى جانب تلبية رغبتها بالاستقرار والأمومة التي صارت تؤجل لما بعد كل السابق، والنتيجة كانت ما نعيشه وما نختبره وما يحاكينا.

لا أقول إن امرأة اليوم أسوأ طبيعةً من امرأة الأمس، ولا أدعو للبكاء على الأطلال وبغض الزمان واليأس من الحل، ولا أدّعي أن النساء وحدهن من تغيّر أو تأثر بالنسوية بانعزال عن مجتمعات كاملة تمضي نحو الاستهلاكية والسيولة القيمية في عالم رأسمالي يريد البشر جميعًا تروسًا فيه، لكننا بحاجة للنظر في الأثر العظيم لما يجري علينا كنساء، ما الذي نفعله بنفوسنا حين لا نتوقف مع ما تتم أدلجتنا منذ الطفولة وحتى آخر أيام عمرنا عليه؟ حين يتم تحميلنا أثقالاً ومسؤوليات مضاعفة عما حمله أسلافنا تحت مسميات برّاقة، حين يتم إبعادنا عما نريد ودفعنا لما يجب

أن نفعل لنمثل أحلام وشعارات غيرنا التي باتت واجبات لا يمكننا أخذ استراحة منها، وحين نرى الاعتراف بكل ذلك موصوماً بالضعف والجهل والاضطهاد.

لأجل ذلك كلّه كانت هذه المقالات كالدواء الذي نحتاجه وإن لم يكن لذيذاً، ونريده وإن غلا ثمنه، المطلوب لنتوقف مع نفوسنا فعلاً ونفظر فيما تم زرعه فينا وما وصلنا إليه دون وعيٍ ولا معرفة حين نظن أن الطريق الوحيد أمامنا هو حمل أضعاف المسؤوليات التي يحمل الرجال، وهذا كله أتانا بحركات تحرير المرأة والتغيرات التي أحدثها الفكر النسوي التي لم تجعل العمل والمنافسة والتعب خياراً إنما واجباً ومعياراً للنجاح الذي علينا أن نحصله.

والكلام بطبيعة الحال ليس موجهاً للنساء وحدهنّ، إنما لكلّ الذين تشبعوا بالفكر النسوي، سواءً في أبٍ يمنع ابنته (التي تريد الزواج) منه قبل إنهاء الجامعة وبدء العمل لكيلا يتحكم بها الزوج، وفي زوجٍ يعيّر زوجته بإنفاقه عليها، وفي أمٍّ تهيئ ابنتها لدخول بيت الزوجيّة بالاحتقان والتخوّف وحساب كل كلمةٍ من الزوج عليه، في رجلٍ يعيّر جاره بأنه "أبٌ للبنات فقط"، وفي جدّةٍ تحذّر حفيدتها من أن "تعيد غلطتها" بعدم تحصيل أعلى الشهادات، وغير ذلك مما هي أجزاءٌ من منظومة فكرية فاسدة كاملة تسرّبت إلينا عبر العقود فصارت كجاهليات البسوس وداحس والغبراء ولكن في حلةٍ عصريّة أكثر أناقة بقليل.

وإن ظهر من الكلام في هذه المقدمة أو خلال الفصول أنه لومٌ للنساء أو اتهام للعاملة بأنها تفعل ذلك لتنافس الرجال أو ادعاء أن العمل ذاته هو مصدر التعاسة الأبدي، فهذا ليس المقصد، لكننا جميعاً بحاجة للوعي بما يجري وبهذا الفكر الذي نتربى عليه لنتحرر منه ونقف ضد التيار الذي يجري بنا نحو ضنك العيش فعلاً.

إننا بحاجة لأن نسأل نفوسنا عما نفعله، هل أدخل هذا التخصص لأنني أحبه فعلاً؟ هل أنا مضطرة للعمل فعلاً؟ هل أحب هذا العمل الذي لستُ مضطرة إليه؟ هل يستحقّ هذا العمل الذي لستُ مضطرةً إليه ولا أحبه وقتي وطاقتي وجهدي؟ هل أؤخر الزواج لأنني لا أريده فعلاً؟ من الذي أسمح له برسم حياتي وطريقي؟ ولماذا؟ لماذا يزعجني هذا الكلام أو ذاك؟ وبعد كل ذلك، ما الذي يستحق أن تمضي حياتي فيه؟

لا أزعم أن الحل سهل، لكننا نحتاج للبدء على الأقل، من كل فتاة وكل أم وكل أب وكل شاب، ونحن النساء أولى بالبدء لأن ذاك كله خدعنا نحن وأساء إلينا كثيراً قبل أي أحد آخر، وهذا ما يعيدني للدراسة التي بدأت بها، والتي قال الباحثون في ختامها: "لعل التغيرات التي حققها الحراك النسائي أنقصت سعادة النساء، ربما جعلتهن يشعرن بأن حياتهن لا ترقى للمطلوب منهن، وربما كانت التعقيدات وزيادة الضغوطات في حياتهن على حساب سعادتهن"[1].

هم يقولون "ربما"، أما نحن فما علينا إلا أن ننظر لنتأكد.

---

(١) المصدر السابق.

عن الترجمة

نشرت أم خالد المقالات المجموعة في هذا الكتيّب كسلسلة منشوراتٍ طويلة باللغة الإنكليزية بعنوان "اعترافات نسوية سابقة" على صفحتها على موقع فيسبوك بين ٤/ ١/ ٢٠٢٢، و١٧/ ١/ ٢٠٢٢[١]، وقد عملتُ وصديقتي كوثر الفراوي معًا على ترجمتها للعربية لما رأينا فيها من خيرٍ وأثرٍ في النفوس، وقد اجتهدنا لتقليل التصرّف بالمقالات لعلّها تصل بكامل روحها نصًا ومعنىً للقارئ والقارئة العرب، إلا أننا –رغم ذلك– اضطررنا لبعض الاختصار وإعادة ترتيب الفقرات لأجل فوارق متطلبات اللغة، وكذلك في سبيل التناسق والتسلسل المنطقي، فاللغة ليست مجرد مفرداتٍ تترجم حرفيًا من لغةٍ لأخرى، إنما هي طرق تفكير كاملة يشعر المترجم بأنه يقفز بشكلٍ مستمر بينها ليتمكن من قول ذات الشيء في لغةٍ بلغةٍ أخرى، وهذا –بالمناسبة– ما يجعل الترجمة باستخدام التطبيقات والمواقع الحرفية قاصرةً غالبًا عن إيصال المعاني الأصليّة، وهو ما جعلنا كذلك مضطرين لتعديل بعض التصاوير والعبارات وتبديل الأسلوب بشكل يسير في بضع نقاط لتلائم الثقافة العربية وتحاكيها دون تغيير أيٍّ من الأفكار. ولله الحمد أن استخدمنا لهذا العمل وجعلنا طريقًا لوصول هذه الكلمات لشريحة قد تحتاجها ولا تنتفع بها بصورتها الأصليّة.

---

(١) https://www.facebook.com/UmmKhalidMuslimMom

عن قراءة هذا الكتيّب

الفصول في هذا الكتيّب أشبه ما تكون بسيرة ذاتية مختصرة تحكيها الكاتبة ضمن واقع عاشته وأمورٍ رأتها وتعلمتها وفهمتها، وإن كانت هذه سيرة ذاتية فإنني أدعو القارئ قبل الدخول فيها إلى عدم التعجل بالحكم على صاحبتها وعدم القفز مباشرةً إلى نيتها وأهدافها، إنما البحث عن فوائد الكلام وإسقاطاته التي قد تعنيه وتنفعه، وإن كنت لا أنفي أهمية تكوين الرأي بالكاتب، إلا أنني أدعو للتمهل وفهم المحتوى قبل الحكم بأن الكلام مستعلٍ أو لا يهمنا أو لا علاقة لنا به أو غير ذلك مما قد يمنعنا من خيرٍ ربما يمثل أمامنا ولا نراه، فالحق هو الحق أيـًا كان قائله وبغض النظر عن أهدافه.

والكاتبة تنطلق من أمور مرت بها وهي تقرأها بوعي وفهم للنّسوية والحداثة والليبرالية والسياق الفكري المجتمعي الموجود في الغرب اليوم، والذي يتسرب رويداً رويداً إلينا، وإن وجد أحدهم أن هذا الكلام لا ينطبق عليه ولا يشبهه في شيءٍ فلا بأس ولا خطأ في ذلك، لكن الحذر مهمٌّ مما قد تقوم النفس به من مخادَعاتٍ دون وعيٍ أثناء قراءة كلمات كهذه، فالأفكار هنا قريبةٌ من كثير من تفاصيل الحياة اليومية، وهي تطرق أبوابـًا غير مريحةٍ، أو تشعر المتلقّي بأنه (ربما) يحتاج لإعادة التفكير في سلوكياته أو (ربما) أخطأ في بعض قراراته أو (قد يكون) مشى طريقـًا ظلم فيه نفسه، وأمام ذلك، كثيراً ما تسرع النفس -بدلاً من الاعتراف بالخطأ ومواجهته- إلى

مهاجمة الكاتب واتهامه بالكبر أو سوء القصد لتبقى في منطقة الراحة التي اعتادت عليها وتتجنب انزعاجاً قد ينتظرها، وهذا من أهم ما يمنع النفس عن الانتفاع بأي رسالة، فلزم التنبيه منه.

وعسى الله ينفعنا والقارئ بما كتبنا وما نقرأ، وأن يجعل هذا العمل حجةً لنا لا علينا.

❋ ❋ ❋ ❋

الفصل الأول: تخبُّطٌ مؤلم

كنت فيما مضى شديدة التعصّب للطرح النسوي، بل كنت أرى نفسي امرأةً نِسويّة[1] طوال سنين الثانوية وبدايات الجامعة.

إذا فأجاكم الكلام فلأنكم لا تعرفون أختكم إلا أُمًّا وربّة بيت ترعى صغارها الأربع وتكتب على صفحتها الإلكترونية حول التربية والتعليم المنزلي، لكنني أدعوكم من الآن لتهيئة نفوسهم لمزيد من المفاجآت.

لم أرغب في الزواج، وإنجاب الأطفال إطلاقًا!

نعم، كنت "تلك" الفتاة!

فكرة الزواج كانت تشعرني بالضعف والتقييد الذي يحد من تمكيني، كأنّ السبيل الأوحد لدفع الضعف عني والعيش على نحو هانئ مطمئن لا يفتح بابه إلا بالاقتران برجل، الفكرة نفسها كانت مدعاةً للقلق والاضطراب بالنسبة لي، لذا كان جوابي حينئذ لكلّ ما يرتبط بمنظومة الزواج هو: لا، شكراً.

فكرة الإنجاب كانت تجعلني أكاد أتميز من الغيظ، كنت أتخيّل الأطفال يتذمّرون أمامي طوال الوقت وحيال كل شيء، يتعلقون بي كوزن ميت لا حياة فيه، يلتفون حول عنقي ويطوّقونه حدّ الاختناق، كنت أتصوّر الرُضَّع الذين يكون

(١) الصواب في تشكيل الكلمة: نِسويّة، بكسر النون اشتقاقاً من كلمة نِسوة، قال تبارك وتعالى: {وقال نِسوةٌ في المدينة امرأت العزيز تراود فتاها عن نفسه} [يوسف: ٣٠]، لفت نظري لهذا كلامُ الدكتور عدنان معتوق في هذا البودكاست: https://www.youtube.com/watch?v=KgvcSHbREdE

ويصرخون من أجل تغيير حفاضاتهم أو يستيقظون وسط الليل حيث هدأة الأنفاس، الجفون مغمضة والكل يغطّ في نومه العميق، إلا تلك الأنثى المسكينة التي قُدِّر عليها أن تكون أمّاً، كنتُ أفكّر في كل الصغار الذين أخذوا على أنفسهم ألا يتفرَّغوا لشيءٍ إلا إتعاب أمهم المسكينة وهم يجعلون لحظات اليوم تمرّ في شكل نوبات من الارتجاف اشمئزازاً من إفرازات أنوفهم اللزجة، والأدهى من هذا كله أن الأمر لن يتوقف عند هذا الحد، فهذه الإفرازات ستصبح مهمّتي وشغلي الشاغل مدى "الحياة"!

كان الأمر لا يختلف في نظري عمّن حكم عليه بالإعدام مدى الحياة، الإعدام على مهلٍ مرعبٍ حتى انتهاء العمر، كيف أرضى أن تغدو هذه التفاصيل الرتيبة هي ما يملأ جدولي اليومي في قابل الأيام؟ هذه هي حريتي، هويتي، بل ما يمنح وجودي المعنى!

لا، شكراً.

إذاً لا زواج، لا أطفال. أنا راضيةٌ هكذا كما أنا، لوحدي.

على هذه الشاكلة كنت أفكر، أو قل هكذا كانت عقليتي ومنطلقاتي مع نهاية مرحلة "المراهقة" واقترابي من أفق العشرينات، لم أفهم شيئاً في الحقيقة، لكنني ظننتني أفهم كل شيء.

أخوات كثيرات يمددن أيديهنّ إليّ الآن ويضممن أصواتهن إلى صوتي ذاك، أسمعهن يقلن: نحن أيضًا على الذي تصفين! إنهنّ نساء ينظرن إلى الزواج من زاوية ضيقة -مثلي- على أنه شراك العبودية، أما الأطفال فهم حبائل الوقوع في هذا الفخ.

هذا ما تشرّبناه نحن النّساء حد الإشباع مع توالي الأيام ونحن نكبر في هذا العالم الأنانيّ الذي أُخفِضت فيه كل الأصوات عدا صوت: "الأنا" الذي مازال يرتفع ويصمّ الآذان.

نعم، لقد تخطّينا كل الحدود البسيطة للتلقين الليبرالي: المؤسسات الحكومية، غسيل الدماغ المُمَنهج عن طريق نتاج هوليوود وغيرها، الموسيقى، المجلات، الكتب، المدارس والجامعات.. كلها لم تفتأ تملأ رؤوسنا بما يجعلنا جنوداً جاهلين للحداثة والفردانية والمتعة والرأسمالية والاستهلاكية، وأخيراً النسوية، والتي تتعاضد كلها لتعلّمنا كيف نحتقر كل ما أو من يتجرأ على انتزاع حريتنا من بين أيدينا، وبالتالي كان الزوج والأبناء هم المتّهم الأول في معادلاتنا، وكانوا بكل تأكيد مستبعدين من مخططات "الحرية".

فكان الدرس لتلك الشابّة إذاً: اِنسَي الزواج، من يحتاج الرجال على كل حال؟ اِنسَي الإنجاب وأوهام الحصول على الأبناء، من يحتاج وَجَع الرأس ذاك؟

كل ما عليكِ فعله هو السعي للتقدّم في مسيرتك الدراسية والمهنية التي اخترتِ وشققتِ طريقها بنفسكِ، ركّزي على أهدافكِ العالية، وابذلي واسع الجهد لبلوغها، اجمعي الشهادات، هذا الماستر، وتلك الدكتوراة، (فأنتِ تستطيعين!) قومي بالأبحاث المخبرية، اكتبي الأوراق العلمية، اصعدي سُلّم الوظائف في الشركات الكبرى، لا تقبلي إلا بالحصول على المراتب العليا والمناصب التي تملأها نفحات التمكين، الحياة جميلة فقط إذا زيَّنتِها بعرش الاستقلالية، جميلة فقط حين تكونين فيها: المرأة المستقلّة.

والحال أننا كنا ننزلق الهوينا، خلسة.

نحن عبثنا بحياتنا إذ باعوا لنا الأوهام وزخرف الكلام، وحين اتبعناه على غير هدى، عشنا في الأوهام والمبادئ الزائفة عدد سنين، حتى وجدنا أنفسنا في أواخر العشرين أو الثلاثين هناك، في ظلمة وحدتنا حيث تلقّينا أولى الضربات الموجعة من حيث لم نحتسب: صفعة الرغبة العجيبة بالأمومة.

على غير المتوقع، تتحرّك مكامن الشعور في دواخلنا بأحاسيس غير مفهومة ورغبة ملحّة بحمل رضيع بين أيدينا الفارغة، في لحظة واحدة، نسرح بخيالنا إلى ذاك البيت الدافئ العامر بضحكات الصغار و أرجلهم الصغيرة تحدث الصخب على أرضياته و بين جدرانه وهم يلعبون ويمرحون ويملؤون الأرجاء بالبهجة، كلّه ونحن نتبسّم لخيال الفكرة وجمال القدر الذي جمعنا، ولا أبلغ من وصف امرأة في الثلاثينات من العمر، إذ رأت إحداهن وهي تدفع صغيرها في عربته فلم تتمالك شعورها الجارف بالرغبة بتلمّس رحمها الفارغ الذي يطلب الامتلاء، فغريزة الأمومة تلك لا تموت فينا مهما فعلنا.

قد تنام وقد تُخَدّر، لكنها تُثار فجأة وتفيق من سباتٍ نظنه موتاً أو انعداماً.

إنه شعور فظيع بالألم يمزقنا، ألم هذا التنافر الفكري المزمن بين ما نريده بشدّة وما نفعله حين نجد أنفسنا في الوسط، أو بالأدق في حالة من التعارض والتنافر بين ما نعتقده ونريده، وما تصدّقه أفعالنا على أرض الواقع.

هذه الرغبة الوليدة العجيبة في الحصول على زوج، على عائلة وأبناء لا تتوافق البتّة مع ما تصرخ به أفكارنا التي آمنّا بها فترة غير يسيرة من الزمن، والتي تقضي بأن الزوج والأبناء ليسوا إلا أعداء مجندين لقصّ أجنحة حريتنا، إننا نجد أنفسنا مطمئنين فكرياً إلى جواز كل سلوك مبنيّ على رفض الزواج والأطفال بالكلية، غير أننا وعلى

النقيض تماماً نجد أنفسنا عاطفياً مجبولات على الميل والرغبة في الأشياء والتفاصيل ذاتها التي طالما رفضناها.

هذا الصراع وحده كفيل بإيصالنا للجنون!

أفكار متنافرةٌ كقطبَي مغناطيس تأكلنا وهي تذهب وتجيء بعقولنا وقلوبنا: "كم أنا ساذجة! كيف كرهت الزواج والأبناء طوال هذا الوقت؟ إنهم كل ما أريده اللحظة!"

"لا، بل أنا غبية الآن بسبب هذه الرغبة الدخيلة التي نمَت بداخلي في الحصول على طفل! ولذا لن آلُ جهدي في التخلص منها، سأكون حمقاء إذا فكرت يوما أن أصبح أمّاً أو امرأة عادية! ما الذي سأفعله مع هؤلاء الصغار أصلاً؟"

"إنه لَعَين العبث أن أضيع رحلتي الجامعية من أجل حجز مقعدٍ في مؤسسة الزواج المملّة! أي عارٍ وخزي ذاك الذي في هدر كل ما حققته وتعبت لبلوغه على مدار سنوات من أجل الزواج؟ أبداً! لن أرمي كل هذا ورائي!"

"ماذا عن طموحاتي، آمالي، وأحلامي؟ ماذا عن هويتي وبصمتي كفرد؟ كلها ستتلاشى عندما أصير أمّا أو امرأة رتيبة! هل هذا كل ما يوجد في الحياة؟ أمرٌ موسف كيف تسمح النساء بهذا!"

"لقد فعلت الكثير، رأيت الكثير، سافرت وعشت مغامرات لا تُنسى، والآن سيكون "الاستقرار" والقرار في بيت عائلي يحيطني فيه صغاري ويحاصرونني على نحو خانق، سيكون ذلك مملاً حدّ القهر! نفسيتي تغيّرت لدرجة أنني لا أستطيع المكوث بين أربعة جدران برفقة الأبناء، لا أدري حقاً كيف سأتمكن من تحمل أثقال هذا التغيير الحادّ في الحياة!"

"هل في الإسلام ما يُلزمنا بالزواج والإنجاب أساساً؟ فكيف تحكم مسيرتي وما اخترته لنفسي على مدى طاعتي وحبي لربي؟"

"عندي تعلّقٌ كبير بأبحاثي، التفكير في التخلي عنها واستبدالها بشيء آخر أمر مؤلمٌ لا أستطيع تحمّله!"

"حتى صديقاتي المتزوجات غير راضيات، إنهن يتذمرن من حياتهن حد التسخُّط أحياناً! يبدو أنّ الأمهات في المنزل يشعرن على الدوام بالقمع وبقلّة التقدير، وكذلك الأمّهات العاملات خارج البيت يشعرن بالضغط الشديد في التوفيق بين مسؤوليات العمل والبيت، لا أحد على الإطلاق يحب أن يكون أماًّ! فلماذا أفعل أنا؟"

"تعبت حقا من هذه الدكتوراة الغبية والبائسة! لا رغبة لي حتى في إتمامها، ما الفائدة التي سأجنيها من وراء تحصيلها على كل حال؟ أنا أريد طفلاً الآن! بل على الفور!"

"لكن.. ماذا لو قمت بهذه القفزة الهائلة من حياتي المهنية إلى حياة عائلية دافئة ومؤنسة ثم ندمت وتآكلت حسرة؟ وماذا لو تركت مهنتي حتى يتسنى لي التفرغ لبيتي والقيام على شؤون صغاري ورعايتهم، ثم وجدتني وقد كرهت الوضع الجديد بشكل مفاجئ! ما الحل حينها؟ ترى هل سيكون ثمة سبيل للتراجع؟"

مع هذه الأفكار الحمقاء، ومع الصراعات الداخلية العصيبة والمضنية التي تثيرها بداخلنا، ستشعر كل أنثى أنها محطمة، تائهة، وحزينة، سيخيم الظلام على كل أركان الحياة وتفاصيلها، ستغدو باردة، ومنزوعة البهجة، أفكارها كلها متشابكة ومضطربة، إنها فوضى عارمة لا تعرف السبيل لترتيبها.

شغفنا وطموحاتنا تقول شيئًا، وقلبنا يهمس لنا بشيء آخر، ونحن بين هذا وذاك لا نفقه أيهما الصواب والأصح.

هذه كانت هديّة الحداثة لنا نحن النساء، سمٌّ تسلّل إلى جذور أفكارنا حتى بلغ مداه، ثم عكف يبدّل فيها ويغيّر شيئًا فشيئًا على جرعات متفرقة، كما تصبغ الألوان بياض الثوب، فطرتنا وجبلّتنا نحن النساء تصطدم بكلّ ما تمليه القيم المجتمعيّة بمعايير العصر في العالم الحديث أجمع، وفي المحصّلة تدخلنا هذه الإشارات الداخلية والخارجية في صراع نازفٍ دائم.

ولحلّ أي مشكلة يتعيّن علينا مبدئيًّا تشخيصها والإلمام بمسبباتها، إذ لا نستطيع حل ما لا نرضى الاعتراف بوجوده أصلاً!

ولذلك نحتاج لإعادة النظر في العالم الحداثي النسوي لسبره ومعرفته على وجه الحقيقة فيه من غير زيف، لنعرف كيف تسلّل بهذا الخبث إلى نفسيّاتنا حتى زعزع أمنها واستقرارها، ثم إنّ البحث على الحقيقة هي مسؤوليتنا؛ البحث بنَفَس منفتح وقلب منشرح لتحصيل الانسجام، وتحقيق الطمأنينة، راحة البال الحقيقية، ذاك هو السبيل لرفع راية السلام، وإنهاء هذه الحرب الداخليّة الطاحنة إن شاء الله.

ذاك رجاؤنا، والله الموفق المعين.

* * * *



الفصل الثاني: النساء، الثقافة والإسلام

النساء في الثقافة المصرية

كبرتُ واحدةً من خمس إخوة وأخوات: أربعة فتيات وواحد ذكر، في مصر وجدت أن الناس يرون الحظوة لمن رزقه الله ابناً، حتى إن الواحد منهم يتلهّف لينجب ولو ابناً ذكراً على الأقل، أما الفتيات، فدعك من سيرتهن!

علاوة على ذلك، سمعت لهم أقوالاً كثيرة في المسلسلات والأفلام تحطّ من قدر المرأة أو تقحمها في أقوال مسخّفةٍ لدورها من قبيل "ده كلام نسوان" و "ده شغل نسوان"... في إشارة إلى نزع الجدّيّة والمصداقيّة عنها، على خلاف الحوارات التي تتخللها تعابير تشيد بالرجل وتمنح كلّ ما يقوم به منزلةً رفيعة وموثوقة مثل: "كلام رجّالة"، أي أنه جاد وجازم ومفيد، وفي المرحلة الثانوية على وجه التحديد، كنت قد بدأت ألاحظ وأدقق في هذا النوع من الخطابات داخل المجتمع الذي أنحدر منه.

النساء في الثقافة الأمريكية

ما سأقوله ليس مأخوذاً من التلفاز أو الأفلام الأمريكية إطلاقاً، فقد كنت أساساً جزءاً من المشهد الأمريكي ودرست هنا في مدرسة حكوميّة، ومع الوقت - وأنا أكبر - كنت قد اقتنعت تماما بحقيقة مفادها: أن تكوني أنثى ليس بالأمر الكافي، فكلّ ما في الذكور أجمل وأفضل، وعلى جميع الأصعدة حتى، فهم يمتلكون جثّة ضخمة تضفي عليهم هيبةً خاصة، فضلاً عن قوتهم البدنية غير العاديّة، أما على الصعيد العاطفي فهم أكثر استقراراً، وأفكارهم أكثر حزماً وصرامة.

المجتمع الأمريكي لم يتوقف لوهلةٍ واحدة عن الهمس لي بأنّ الفتاة لا تعدو أن تكون مادةً جنسية لتحقيق شهوة الرجال ومتعتهم، وبالتأكيد فهي أيضاً ذلك الكائن المسكين الاعتمادي الغبي والبسيط! هذه هي الرسالة التي وصلتني من خلال أغلفة المجلات، كلمات الأغاني، والأحاديث اليومية في المواصلات.. لقد راعني هذا التصوير البشع المهين وهو منتشر في كل أنحاء العالم غير الإسلامي.

النساء والتشريعات الإسلامية

ككثيراتٍ غيري، أصابتني سهام التصورات والأفكار المشوهة والمسمومة المنتشرة التي تؤصل لقاعدةٍ مفادها أن الإسلام لا يكترث بالمرأة، بل ينبذها ويهمشها.

لَمْ أُجبَر على ارتداء الحجاب، غير أنني وجدت صعوبةً بالغةً في فهم الغرض منه، جزءٌ مني اقتنع أن الحجاب ما هو إلا وسيلةٌ لحجب جمالي أو جعلي أكثر بشاعة، أو على أقل تقديرٍ سرقة أنوثتي، لكنني أحياناً كنت أذهب إلى الجانب الفكري الآخر المعاكس لهذا التصور، كنت أقول لربّما وعلى العكس هو علامة أنوثتي، مادامت النساء هنّ المطالبات فقط بارتدائه، في الواقع لم تكن عندي فكرة واضحة المعالم عما تعنيه الأنوثة أساساً، لم أعلم ما هي وكيف تبدو، إن كانت أمراً جميلاً أم قبيحاً، مُعِزّاً أم مُذِلّا.

أفكارٌ مشوّشةٌ، وعلامات استفهامٍ كثيرةٌ كانت تربو بداخلي شيئاً فشيئاً، لماذا تميّز التشريعات الاسلامية بين الرجال والنساء على هذا الشكل؟

لم يكن الأمر محايداً بالنسبة لي، إنّما كان مشبعاً بترجيح كفّة أحد الجنسين على الآخر، فالذكور كانت لهم تشريعات خاصة تزكّيهم وترفعهم، على خلاف الإناث اللواتي تُركن للحيرة والفُتات!

وهكذا، بنيتُ تصوري حول وضع المرأة في الإسلام على مجموعة فرضيات، استقيتها من بعض الأحكام الخاصة بالنساء مثل الحجاب، إمامة الرجال لهن وإلزامهن بالوقوف وراءهم، طبيعة الاختلاط بين الجنسين وضوابطه التي كانت في نظري تؤكد ما افترضته وتوصلت إليه من أن الإسلام يعطي المرأة مكانة أدنى من شقيقها الرجل، وبدا لي الأمر حينها تعبيراً صريحاً لا يختلف عن الذي تلقّيته بصوت عالٍ وفصيحٍ من قِبل الثقافتين المصرية والأمريكية، والذي يقول: الرجال جيدون، والنساء سيئات!

معظم اليافعين يملكون فهماً ضيقاً وحدِّياً عن العدالة، وبالنسبة لفهمي ذاك فهذه الفوارق التي اتخذت من الاختلاف في الجنس منطلقاً لها لم تكن تتناسب البتة مع ما تعلمته في الثانوية الأمريكية عن العدالة، فالعدالة والمساواة هما مفهومان يساوي أحدهما الآخر: (المساواة=العدل!) أليس كذلك؟ فهل من العدالة عدم مساواة الإسلام بين الذكر والأنثى؟ أين هو العدل؟ لم أعد أفهم.

أبي، ذاك الرجل *الطيّب* الصبور، تحمّل كثيراً من الخطابات الحانقة التي صدرت عني أنا اليافعة الممتعضة في سن الخامسة عشرة، ومع أن أسئلتي كانت كثيرةً ومتكرّرةً على نحو مزعج، إلا أنه لم يسخِّفها قط، إنما تعامل معها بمنتهى اللطف والأناة ولم يتركني لحبائل التساؤلات تخنقني.

استفهامات سريعة متتاليةٌ ومشحونة بالاتهّام على شاكلة: لماذا على النساء ارتداء الحجاب دونـًا عن الرجال؟[1] لم يكن الانزعاج من وضعه هو مثار سؤالي بقدر ما كنت أريد أن أراه يغطي رؤوس الذكور وهم يذهبون به مثلنا إلى المدارس في هيئة غريبة!

لماذا نصيب النساء من الإرث يعدل فقط نصف حصة الرجال؟ أليس في هذا إشارة إلى ازدراء الأنثى وجعلها أقلّ قدراً من الذكر؟!

لماذا شهادة رجل واحد تعدل شهادة امرأتين؟ لماذا تعدل شهادة الواحدة منهنّ نصف شهادته؟[2] ألأنهن مغفّلات وناقصات عقلٍ مثلاً؟ لماذا فضّل الله الرجال وقدمهم على النساء في كل شيء؟ وأيّ معنى قد يحتمل كل ذلك؟!

كان والدي يحاول بكلّ حلمٍ وصبرٍ تخفيف ما بي من خلال تفكيك هذه العقد المضطربة التي جئته بها، والتي ارتبطت في داخلي بعقليّة: إما-أو، أبيض أو أسود، لا خيار ثالث يلوح في الأفق.

لكنني مع كلّ جهوده الحثيثة كنت أعاند ثم أعود به لنقطة الصفر من جديد، كنت أظلّ على حالي وأعكف على تفسير كل كلامه على النحو الذي يريحني، هل كنت أكفّ عن المكابرة والمعاندة؟ إطلاقـًا.

---

(١) للإجابة عن هذا التساؤل أنصح بهذه المصادر:

كتاب: جدلية الحجاب، د. صهيب السقار، وكتاب: الحجاب شريعة الله في الإسلام واليهودية والنصرانية، د. سامي العامري

ومقال: إشراقة يسيرة في حكم ومقاصد الحجاب، موقع المحاورون، عبر الرابط الآتي: https://bit.ly/٣٤oSiLi

(٢) للإجابة عن هذا التساؤل أنصح بهذا المقال:

شبهة أنَّ: شهادة المرأة نصف شهادة الرجل=انتقاصٌ لها!، موقع المحاورون.
https://almohaweron.com/٧٠٠٢-٢/

لقد كنت أقف في وجهه اليوم التالي، أكرّر وأعيد على مسامعه ذات الأسئلة، ومع ذلك لم يملّ ولم يعرض عن إجابتي قط.

الخلطُ المُزمِن بين مفهومي "المساواة" و "العدالة" عند الأنثى، يافعةً كانت أو شابة، كفيلٌ بحملها على ركوب قاطرة النّسوية، واتخاذ شعاراتها للمطالبة بالمساواة وتحقيق العدالة بين الجنسين قضية تفنى في سبيلها الأعمار!

فالمساواة هي العدالة، وبالتالي هي الهدف الذي ينبغي هدم كلّ ما يقف في وجهه، وهذا المزج كان الوَتَر الذي عزفت عليه النسوية مقطوعتها داخلي.

* * * *



الفصل الثالث: التعليم

معظم الناس يخلطون بين مفهومين أساسيين هما: "التعليم" و "المعرفة"، والأصل أن العلاقة التي تجمع بينهما أقرب إلى التباين منها إلى التساوي.

إن نظام التعليم الشامل بأمريكا ليس محايداً أبداً، إنما هو في عكس الحياد حقيقةً، فهو نظام مصممٌ على نحوٍ مدروسٍ ومتعمدٍ يرمي إلى تحويل كل طفل بريء يرتاده إلى عامل مصنعٍ لا يختلف دوره عن الآلة، ومواطنٍ بارٍ لا يبخل بتقديم الولاء والطاعة لدولته وخدمتها.

المدارس في حقيقتها مجرد معسكرات تلقين مجيدة تلعب دور الحاضنة للأطفال من سنّ الثالثة أو الرابعة إلى قريب من الثامنة عشرة، تُقولبهم فيها على نحو ممتاز ليستعدوا لتقبل ما سيأخذونه من كلّيّات الفنون والعلوم الحرة، والتي تشدّ على أيديهم من جديد وتأخذهم في رحلة مكثفةٍ من إفراغ وغسل الدماغ، ومن ثم إعادة ملئه بصب الغثاء فيه بالقدر الذي يكفي لأهدافها وزيادة، وشيئا فشيئا تطفو على السطح وتبرز بعض ملامح النسوية المتحررة في نفس الطالبات إما صراحة أو تعريضا، إلا ما رحم ربي.

واذا ما استصعبتم استساغة هذا الكلام، فأنا أدعوكم إلى قراءة كتاب (The Underground History of American Education) لكاتبه: John Gatto، فمؤسس هذا النظام التعليمي الأمريكي الحداثي هوراس مان اهتدى إليه، أو بالأدق أخذه بحذافيره عن النظام الدراسي البروسي، بعد أن سافر مدة من الزمن إلى هناك

وأعجب بالنهج الذي تسلكه بروسيا في إدارة المداس، حيث جعلت من الاحترام التام والطاعة والولاء إلى الدولة ركائز وقواعد أساسية تُدرّس داخل أروقتها على نحو لا يختلف في دقته عن دوران عقارب الساعة ذات الحتمية والانضباط، أما تعميم هذا النظام فجاء عقِب تجرُّع الروس مرارة الذل والهزيمة إبان الحروب النابوليونية، لضمان عدم خروج أي جندي فيما بعد عن طاعة الدولة أو مخالفة الأوامر.(١)

أنا كنت الفتاة المسلمة التي ترددت على كثيرٍ من المدارس الحكومية الأمريكية منذ سنّ التاسعة وحتى سنّ الثامنة عشرة من العمر، ثم بعد ذلك مضيتُ أرتاد القاعات المقدسة لـ «هارفارد»، أحد أهم أكثر جامعات الفنون الحرة "انفتاحاً".

ترى هل سيكون تأثري وتشربي للأفكار النسوية الخبيثة بعد ذلك أمراً مستغرباً؟ بل على العكس، إن عدم حصوله هو الذي ينبغي أن يسبب التساؤل والتفاجؤ!

---

(١) مما ورد في الكتاب: "منذ منتصف القرن عملت المخططات الطوباوية على تغبية الأفراد وتأخير نضجهم في سبيل الهدف الأسمى كما وضعه روسو في كتابه "إيميل". نظرياً على الأقل، الهدف الأول الذي كان ينبغي الوصول له على مراحل بطيئة هو الإدارة العلمية المنظمة للمجتمعات، حيث يغدو الأشخاص الأفضل قادرون على اتخاذ القرارات دون أن تعيقهم التقاليد الديمقراطية. بعد ذلك، يغدو التكاثر البشري والمصير التطوري للجنس البشري ممكناً، ولهذا كان المؤسسات المفروضة عالمياً باسم المدارس هي العقار الأنسب وهي تزيد اعتمادية الأفراد عاماً بعد عامٍ حتى يصلوا إلى ما كان سابقاً سن النضج وهم مازالوا معتمدين على المدارس والجامعات وغير قادرين على القيام بأي فعلٍ مهم حتى يتأخر بهم العمر ويتأخر نضجهم.

هكذا تم تطويل الطفولة، واختراع المراهقة، وصارت المدرسة السبيل الوحيد للحصول على عمل، وبات طلاب الجامعات يضيعون الوقت وهم ينتظرون أن تبدأ حياتهم" (صفحة ١٤) rFBCrp٣https://bit.ly/

في الصف الرابع في المدرسة العامة تعلمت عن خرافة "بابا نويل"، في الصف الخامس تحدثنا كثيراً عن الحرب الأمريكية الثورية وأبطالها: "جورج واشنطن"، "توماس جفرسون"... وباقي أفراد العصابة، أما في الصف السادس فقد شقوا آذاننا بالحديث عن الرحلات الاستكشافية وأبطالها الشجعان، ثم عكفوا على تعليمنا أبجديات عيد الشكر الأمريكي، والترنيمة الروحية (Kumbaya) وبداياتهما، ولا أنسى الصف السابع حين أعددت تقريراً كامل الأركان عن سيدة كنت قد أُعجبت بشخصيتها وسيرتها ومسيرتها الحافلة بالنضال، قدموها لنا في صورة المرأة الشجاعة المثالية، التي لم تألُ جهدها في الدفاع عن حقوق المرأة، ومحاولاتها الدؤوبة لسحب ذيول الظلم والاحتقار عن النساء قاطبة، كانت تلك السيدة التي أخذت بمجامع عقلي وتلافيفه هي: "Susan.B.Anthony"!

لم يحتج تنفيذ هذه الأكاذيب الصارخة، والتحقق بها على أرض الواقع من طرفي لأكثر من ١٠ سنوات أو أقل، المدرسة الحكومية دأبت بجهود حثيثة على محو وتبييض صحائف كل من رأت في سيَرهم وتاريخهم ما يخدم المصالح الأيديولوجية للدولة، فالآباء المؤسسون مثلاً لم يكونوا على وجه الحقيقة أكثر من عصابة إجرامية متعصبة تدعو للعنصرية بكافة أشكالها! وأما ثلة المستكشفين البريطانيين، فهم لم يتمكنوا من إرساء سفنهم على الأراضي الأمريكية واتخاذها موطناً لهم إلا بعد قيامهم بمجزرة ذبح شنيعة أبادوا فيها السكان الأصليين!

وماذا عن قصة "درب الدموع"؟ هل حقاً ما حصل من تهجير للمواطنين الأصليين مجرد كذبةٍ لتشويه التاريخ السَّمح لأمريكا؟! ثم ماذا عن سوزان تلك ونضالاتها هي وصديقاتها؟ أم أنهن كنّ يناضلن فقط لأجل بقاء العرق الأبيض واستمراره؟ لقد كنّ كارهاتٍ في الحقيقة للسود وللرجال بشكل عام، وللإله بشكل

خاص، لقد كنّ أولى النسويات الملحدات، متعصبات مليئات بالكره والحنق، ولا يفوتني القول أنهن كنّ كذلك يتمتعن بكامل الحقوق ولا يخدمن إلا ذواتهن.

هذا بالضبط هو الفرق بين مفهومي "التعليم" و "المعرفة"، فالمدارس لها برنامجها الخاص وهي تعمل على تعليم روادها لجعلهم تروسا في عجلة هدم الفضائل، يخدمون عن طيب خاطر مصالح الليبرالية، المادية، الإلحاد، العلموية والنسوية!

نعم، هكذا تعاد قولبة وتشكيل تصورات وأفهام الصغار، ليكونوا جنود الغد المخلصين!

اكتساب المعارف لا يقتضي بالضرورة الخضوع واللجوء إلى هذا النظام التعليمي المنهِك. الرياضيات، العلوم، القراءة، الكتابة، الفن وغيرها، كلها معارف تستطيع أخذها دون أن تصيبك لوْثات هذه الأنظمة المنفلتة الآسنة.

القياس الذي أعتمده للتمثيل هاهنا هو سكب الطلاء في الدلو، فالذي علينا التعامل معه بوعي هو أن المدارس الحكومية الغربية مطالبة بتعليم الأطفال مواد أكاديمية بحتة: كالقراءة، الكتابة، والحساب، على نحو يشبه من حيث المبدأ صب كم هائل من الطلاء في دلو صغيرة، والدلاء الصغيرة هي أذهان أبنائنا الصغار، لكن الطلاء ذاك لم يعد نقياً، إنما امتلأ بنجاسات الإلحاد، الليبرالية، العلموية، وبالتأكيد النسوية، ضلالات بعضها فوق بعضٍ تمّ تضمينها ودمجها بخبث مع المواد الأكاديمية، بحيث يغدو استئصالها أو فصل أحدها عن الآخر أمراً عسيراً، إلى شبه المستحيل.[1]

(١) خصوصاً ونحن لا نرى من بعيد إلا الطلاء الذي نريد، وكثيرٌ منا يرون تلك الشوائب ولا يرون فيها إشكالاً. =

التعلّم، النضج، الحكمة، معرفة النفس، العلم، الفهم، والفقه: كلها مفاهيم مهمّةٌ لأقصى حد، فهي تتضافر وتتآزر جميعها لتشكيل وبناء النسخة البشرية السويّة ما أمكن، وهي نفسها غير متوفرة في النموذج التعليمي البروسي-الأمريكي السائد.

التعليم يختلف كليا عن التربية وعن العلم، وهذا الفهم المحدود هو بعينه الذي تقع فيه بعض الأخوات المتأثرات بالخطابات النسوية، تقول: "الإسلام يحث على العلم ويدعو له، فأول كلمة نزلت من الوحي الشريف هي {اقرأ}، ولذا فحصولي على الدكتوراة في الإدارة المالية هو حتماً عبادة خالصة".[1]

المسلمون كانوا دائماً على وعيٍ بضرورة تمحيص ما يتلقونه وما يُعرَض عليهم، لا يكفي الاهتمام بالمعلومة، لكن من يقولها، ما خلفيته وكيف تؤثر منطلقاته بشكل أو بآخر في نفس المتلقي، وهذا بالضبط ما يحصل للتلميذ مع المدرّس داخل الفصل؛ إذ يعمد إلى مراقبة جل تحركاته وتعابير وجهه وما يتلفظ به، وكل ما يتعلق بطريقة تعامله عموماً، وهو ما يمكن أن نختصره في "التعلم بالقدوة"، لذلك كان أخذ الدين من مصادره الموثوقة، والتثبت من المعلومة وحاملها أمرًا جوهرياً حثّنا عليه الإسلام.

= ومثال هذا في كيفية مزج علم الأحياء بأيديولوجيا التطور التي نرى في المدارس والجامعات اليوم من خلال عبارات مثل: "تطورت أسماك النفيخ لتدافع عن نفسها عن طريق"، مع أن أحد شقي العبارة حقائق ومشاهدات، والآخر فلسفة وآراء.

(١) القصد هنا هو التمييز بين العلم النافع وبين العلم لأجل العلم فقط، وبين العلم الذي يناسب الفرد ويمكنه الإبداع فيه وبين العلم الذي يخدم الشركات ويضيع العمر والطاقات ويصرف عن الرغبات وأهداف الحياة الحقيقية في خدعة أن المرء على خيرٍ طالما هو في زيادة من العلم.

(وهو ما دفعني على وجه الحقيقة إلى تعليم أبنائي منزليًا، وإن لم أُرزق بالبنات، غير أنني لو رُزقت بأنثى فحتمًا سأحرص على تعليمها منزليًا لإنقاذها من لوْثات النسوية السامة)

كان هذا ببساطة واقع نظام التعليم الشامل، القائم على مزج كلّ ما هو أكاديمي بالغيبيات والتوجهات الفكرية السائدة المطلوبة حتى يتلاءم الذهن الناتج مع دعاوى النسوية، الفردانية، واللاأدرية!

في المقال القادم إن شاء الله، سنحاول كشف الغطاء عن الجانب الاجتماعي لنظام التعليم، وأثره على الفتيات اللاتي شققن طريقهن صوب النسوية.

❊ ❊ ❊ ❊



الفصل الرابع: الأنوثة والجانب الاجتماعي للمدرسة الحكومية

فتاةٌ مسلمة تلقّت تعليمها في ثانوية أمريكية عامة.. هذه أنا.

هناك حيث كان شغل الطلبة الشاغل الحرص على الظهور في هيئة أنيقة؛ ملابسهم، أحذيتهم، حليهم.. وهو ما ينطبق حقيقة على الإناث كما الذكور، إلا أن الأمر عند الفتيات كان مليئًا بالمغالاة، وهو ما كان يظهر في لهفتهن و تطلعهن الدائم لاتباع آخر صيحات عالم الموضة، العناية المفرطة بتسريحات الشعر التي قد يصل الأمر معها أحيانًا إلى زيادة أو تركيب بعض الخصلات، أو إضافة الألوان الزاهية، وهلمّ جراً..

بالنسبة لي كان من غير الممكن أن يسير النموذج الأنثوي المحتشم والحييّ في قالبه الإسلامي جنبًا إلى جنبٍ مع النموذج الأنثوي العلماني والمنفلت، محاولة الجمع بينهما ماهي إلا ضرب من العبث والمحال.

في الثانوية كلّ الفتيات كنّ جميلات واجتماعيات، مهتماتٍ ومتعلقات كثيراً بأقرانهن الذكور، تفاصيل حياتهنّ تدور كلها في فلك الارتباط بصديق، ومع ذلك كنت أَراهُنَّ يعشن في خوفٍ شبه مستمر، بل على حافة الانهيار حقيقةً، فكلما لاح شبح الانفصال في الأفق تتفطر قلوبهنّ ألمًا، ويغرقن في بحر الدموع المقهورة، الشيء الذي كان يكشف بوضوح القصور لديهنّ على ضبط النفس واحترامها.[1]

---

(١) أظهرت إحصاءات عام ٢٠١٩ أن حوالي ٤٠٪ من طلاب الثانوية الأمريكيين نشطون جنسيًا، النسبة التي تصل إلى حوالي ٥٧٪ في طلاب الصف الثاني عشر وحدهم.

https://www.childstats.gov/americaschildren/tables/beh٤a.asp

وهو بالضبط ما حصل مع المسكينة "روكسان" حين أفصح لها "جيمس" بطل فريق المصارعة في الثانوية بعد قصة حافلة من العشق الزائف عن رغبته في الانفصال عنها! أذكر يومها أنني كنت أهمّ بأخذ كتبي من الخزانة استعداداً لحصة دراسية حين سمعتها وهي تبث شكواها لصديقتها، وتقول بحرقة وأسى: إن حياتها تحطمت وتُركت للدمار بعد أن تخلى عنها جيمس!

امتلأت غيظا لحظتها ولم أستطع إخفاء امتعاضي، فهمست لنفسي أن: "اعتبري! إياك وهذه العاقبة المخزية المشينة، فكما يقولون، الدخول في هذه العلاقات المرهقة يودي بالفتيات إلى الحمق أو الجنون، إياكِ أن تكوني على شاكلتهن!"

وددت يومها لو صرخت في وجه روكسان وقلت: " استجمعي قواك وكفاك حمقاً، منذ متى كنت بهذا الضعف؟ ومن أخبرك أساساً أنك بحاجة لجيمس هذا؟ غبية! كفي عن التفكير المفرط في الذكور وملاحقتهم!"[1]

مواقف كثيرة اجتمعت وتراكمت في داخلي، ثم دفعتني للتساؤل عما إذا كان سلوك روكسان سليماً، يعبر فعلاً عن الأنوثة، ويتكلم بلسان حال كل فتاة.

ثم فكرت.. لحظة!

إذا كانت هذه هي الأنوثة فأنا أتنازل عن رغبتي بها، إذا كانت عقلية الذكر

---

(١) وفي هذا الموقف من الإشارات لمساوئ التعليم المختلط وأهمية الفصل بين الذكور والإناث ما لا يخفى، وقد أوضحت دراسةٌ على ١٨ عاماً من البيانات أن التعليم أحادي الجنس مرتبطٌ بوضوح بعلامات أعلى في الاختبارات العامة، من حيث مهارات قراءة أفضل، وتحصيل علميٍ أعلى، ونسب أقل من البطالة.

https://journals.sagepub.com/doi/abs/١٠,١١٧٧/٠٠٠٤٩٤٤١٩٩٠٤٣٠٠٢٠٤

ستجعلني قادرة على احترام نفسي والعيش بكرامة، فأنا قطعـًا أُفضّـل أن أكـون فتـاة بعقلية ذكر على أن أحيا على شاكلة من يبدون فاقدات لأي عقلٍ أصلاً! فكل ما فيهن كـان مصـطنعـًا؛ أظـافرهن، وشـعرهن، ووجـوههن المغطـاة علـى الـدوام بمسـاحيق التجميل.

أحيانـًا كنت أتأمل كيف تستطيع الواحدة منهن تحمّل كل هذا؟ أيّ معنىً الذي في ارتداء تنورة قصيرة في شدة البرد القارس في نيوجيرسي؟ بل بأي منطق كانت تفكـر تلك التي تتحمّل ألم الكعب العالي للمدرسة؟ وأي زينة تلك التي في استبدال مظهـر رموش العين الأصلية بأخرى مصطنعة؟ ما الذي كان يجبرهن على القيـام بكـل هـذه الأشياء الخرقاء؟

في الحقيقة إنهن فتيات وضـعن قيمـتهن كلهـا في نظـرات النـاس إلـيهنّ فأسـلمن أنفسهن لهم، واتخذن من رأيهم دافعًا لكل ما سبق..

ولأقلهـا صـراحة: هـذا الصـنف مـن الفتيـات هـنّ سـاذجات بقـدر جمـالهن وحسنهن المصطنع تمامـًا، لكن هذه كانت الزاوية التي نظرت من خلالها إلى الأنوثة حينها بروح أنثى يافعة، وهي التي دفعتني للوصول إلى القرار: إذا كانـت الأنوثـة هـي رديفة للضعف واللامنطق، فأنا أجدد رفضي لها وأقول: "لا، شكراً!"

كفتاةٍ مسلمة شعرت بمقت شديد لهـذا النمـوذج الأنثـوي المخـزي والمنحـل، فكّـرت أن هيـأتي، طريقـة لباسـي، حجـابي، -وإن خالفـت القـول السـائد بـأن الأنوثـة والاحتشـام لا يتماشـيان معـًا- إلا أنهـا تبقـى أفضـل بكثيـر مـن مجـاراة واتبـاع تلـك الحماقـات، فقـد كنـت أعـرف حـقّ المعرفـة مـا ترتديـه النسـاء في مصـر مـن الحجـاب والخمـار، والعبـاءات الفضفاضـة.. إلا أن الإتيـان بهكـذا نمـوذج، والتحقـق بـه داخـل

مجتمع أمريكي الأصل فيه هو العري والانحلال شكّل حاجزاً أمامي، فهكذا سيكون لباسي حتماً محط سخرية واستغراب من الجميع!

في الثانوية، ووسط هذا الفراغ والتضارب، اكتمل تصوري السطحي والأجوف لما يمكن أن ترمز إليه الأنوثة من الضعف والسذاجة وكل تلك الحماقات! وهو مالم أقبله على نفسي، فرُحتُ أفكر في الذي عليّ أن أكونه بالضبط، ما هي هويتي كمسلمة في ريعان شبابها تحاول أن تكون صورة عمليةً للحياء دون أن تبدو ضعيفة وجلة؟ كيف أجمع بينهما معاً؟ أي السبل أقتفي لبلوغ غايتي؟ وعلى ذكر الغاية، ما الذي أريد بلوغه تحديدًا؟

فأتاني الجواب: مرحبا بكِ بيننا.. النسوية هي الحل لأدوائك كلّها.[1]

* * * *

(١) حبذا تتفكر القارئة هنا بالمؤثرات والعوامل التي قد تكون أوصلتها لحمل الأهداف والتصورات التي لديها الآن عن ذاتها وعن جنسها وعن غاية وجودها. لعلّكِ لم تدخلي مدرسةً حكومية أمريكية، لكن سمعتِ من طالبٍ في الفصل سخريةً من أنك لا تصلحين لشيء، لعلها قصّة إحدى صديقات والدتك التي هجرها زوجها مع صغارها وسافر مع امرأة أخرى أجمل وأصغر، لعلّها نكتةٌ متداولةٌ فحواها أن الرجال لا يأثمون بينما النساء صوابهنّ خطأ، لعلها كلمةٌ من مسلسل أو مشادّة بين الوالدين أو غيرها، نحتاج ههنا لرؤيتها وتفكيكها ومن ثم فهم إجابتها والأثر الذي رسمته فينا.



الفصل الخامس: نقطة التحول

لا أذكر جيداً اول مرة سمعت فيها كلمة "نِسويّة" ولا بداية تعرفي على صفات المرأة النِّسوية، فهي مفاهيم منسوجة في المجتمع المحيط بي كله، أراها متمثلة أينما ذهبت أو وليت وجهي، إنها امتداد لشجرة الانحلال الليبرالية العلمانية والمرتبطة على نحو خبيث بالفردانية "والاستقلال".

أذكر في بدايات المرحلة الثانوية كيف ذاع صيت أغنية "امرأة مستقلة" لفرقة "ديستني تشايلد" وعلى نحو فاتن تصعب مقاومته، لقد ظلّت كلماتها حوالي عامٍ كاملٍ تتردد في كل مكان، أسمعها كل يوم وحيثما ذهبت، على موجات الراديو وفي المقهى الذي كنت أعمل فيه بعد المدرسة بدوام جزئي فيه:

"عندي سؤال، أخبرني ما رأيك بي؟.

أنا أشتري مجوهراتي الخاصة وخواتمي!.

أتصل بهاتفك الغبي حين أشعر بالوحدة فقط!.

حين ينتهي الأمر، انهض واذهب وحدك..

عندي سؤال، أخبرني كيف تشعر ناحية هذا؟.

الأمر في علاقاتي دوماً النصف بالنصف..

الحذاء في قدمي، اشتريته أنا..

اللباس على جسدي، اشتريته أنا..

لأنني أعتمد على نفسي إن أردت، أعتمد على نفسي..

إن أردت أن تدللني، لا أمانع وهذا مالك..

لكن لا تعتمد على أحد آخر لإعطائك ما تريد"[1]

لقد كُتبت الكلمات بمداد نسوي مشتعل، ولم أحتج لكثير وقتٍ حتى أذوب في نيرانها المسمومة، فكرة الاستقلال تحديداً كان لها مفعول السحر عليّ، كأنها تعويذة النجاح حيث لا عوائق ولا حواجز.. "اشتري كل حاجياتكِ بنفسكِ".. "لا تتركي المجال لأي رجل لمراقبتكِ والقيام على شؤونكِ"، وبعبارة أوضح: "كوني أنثى قوية، مستقلة بذاتك، مقتدرة، عزيزة بنفسك، فمن يحتاج الرجل!"

والحقيقة التي كنا نسمع ونعي: "كوني أنت الرجل!"

تشربت هذه الأفكار بنهم شديد كأنها غذت الجوع والحاجة للقوة فيّ، حيث هي القالب الملائم والأكمل بعيداً عن الأنوثة حيث الضعف واللامنطق، ثم ما لبثت أن خطوت أولى الخطى في رحلة التغيير، بدءاً بمحو كل مظاهر الحاجة والضعف في صورتها الأنثوية، وانتهاءً بالعزم على تحقيق معاني الرجولة والتفوق -كما فهمتها- عبر ممارسة الرياضة و تحصيل اللياقة البدينة.. حتى أنني انطلقت في تعلم فنون المصارعة والقتال في أولى السنوات الجامعية (وهو ما كرهته فيما بعد).

---

(١) الكلمات واضحة السوء، وقد تناقشتُ مع أختي كوثر في إبقائها في الترجمة أو حذفها، وارتأينا إبقاءها احتراماً للنص الأصلي ولأهميتها في المعني وإسقاطاتها في مجتمعاتنا، فكلمات الأغنيات التي تصدح في المحال التجارية والمطاعم في بلادنا العربية ممتلئة بالفكر الهادم للأسرة والمدمّر للنفس سواءً من حيث التعلق الشديد بالمحبوب، أو من حيث التحكم به وتمجيد الاستقلال الممرض عن كل أحد.

كان الزملاء يرونني في الجامعة كفتاة صلبة شديدة وصعبة المراس، شيئًا ما "مسترجلة" بعيدة عن الأناقة والتزين وما يمتّ إليهما بأي صلة، لم أتحرج إطلاقا عن جعل الوصف المناسب لي أني "نسوية".

نعم، وجدت أن هذا اللقب هو ما يليق بي ويعرّفني آنذاك.

لكن هذا الجانب المظلم لم يكن يمثّل إلا بعضًا مني، فالشق الآخر الذي حرصت على تكميمه لم يرض الصمت سجنًا له، بل ظلّ حيًا في غرفته المغلقة يستنجد داخلي ويصرخ طلبًا للحرية، كشيء تحبّه بشدة وتزوره بخجلٍ بين الفينة والأخرى، إلا أنك في ذات الوقت تواريه عن مرأى الأعين وتخشى أن تفقد قيمتك بسببه، أو أن يعيّرك الناس به، بجانبه كنت أشعر بالصدق والصفاء يتدفق في لحظة من التجرد أرغب فيها عن صنم الاستقلالية وما ينطلي تحته من متطلبات مستنزفة علي أن أبدو في ضوئها دومًا قوية لا أقهر، ذلك الجانب الأصيل فيَّ كان يريد بشدة ما حاولت طمسه من رغبة في بيت دافئ وعائلة وزوج وأطفال أحبهم ويحبونني، ذاك الجانب كان يهمس لي أن لقب "السكن" هو ما يليق بي حقًا.

غير أنني مع ذلك كنت أبدي للآخرين غير ما أخفي، كنت أصر وأؤكد بحزم على موقفي بالبعد عن الأنوثة والزواج وما يذكرني بأنني أنثى كغيري من الإناث.

أذكر يوما أنني وإحدى الصديقات المسلمات التي كانت تشاطرني أفكاري أخذنا على أنفسنا عهداً في شكل ساخر بعدم التفكير إطلاقًا بالزواج، مَن بحاجة إلى شريك على أي حال؟

سنواتٌ مديدة من عمري مضت وأنا أحاول السير عكس حاجتي وميولاتي، بذلت واسع الجهد لأصبح بقوة الرجال وأنافسهم، استهلكت نفسي في معركة وهمية خاسرة كان الخصم فيها على وجه الحقيقة هي "فطرتي".

لا أنسى ردة فعلي ذات مرة حين وصلت مجموعتَنا الطلابية رسالةٌ على البريد الإلكتروني من إحدى الزميلات تعلِمنا فيها أن أحد المحلات العصريّة، والذي يقع على بضع خطوات من الجامعة، أقام تخفيضات كبيرة على الأوشحة التي يمكن ارتداؤها كحجابات أنيقة، قالت إن بعض الوشاحات برّاقة وفيها خرز جذاب أيضـًا، كانت لغتها مليئةً بالحماسة فرحـًا بتلك الأقمشة، لحظتها تعاملت مع الرسالة كإهانة لشخصي، ولشدة ندمي اليوم، رددت عليها برسالة لئيمةٍ وصلت لكل المجموعة من نوع: "ماذا إن لم نرد ارتداء حجاب جميل براق أو ذا خرز!" كلام فارغ بلا فائدة ولا يشبهني، لؤم غير مبرر انفجر فجأة بوجه زميلتي البريئة.

لكن تلك الرسالة همست إلى شيء غريبٍ داخلي، لقد أشعلت فيّ رغبة دفينة خِلتُ أنها اندثرت أو تهشمت منذ زمن، رغبة الأنثى الرقيقة بالتزيّن والتجمّل والمديح، شعرت بحماس غير مفهوم للذهاب إلى المحل وإلقاء نظرة على المجموعة، ولربما اختيار وشاح جميل من بينها، غير أنني قدّرت مباشرة أن في هذا خيانة لمبادئي وما ارتضيته لنفسي، لذلك أنّبت صوتي الداخلي وأمرته بدفن هذه الحماقات الأنثوية الغبية فوراً!

قلت لنفسي: انظري إلى هذه الفتاة، انظري إليها تتحدث على الملأ عن هذا الشيء "الأنثوي" السخيف! ألا ترى الذلة والسوء في رغبتها بالتزين والتأنق؟

لا يهـم البتـة إلـى أي درجـة تتمنـى إحـدانا أن تكـون أنثـى، مهمتنـا الأولـى هـي مدافعة وتنحية هذه المشاعر الغبية المرتبطة بالضعف حتى من دواخلنا.

لـم أكن فعليا قادرة على تشخيص حالتي، لماذا أتمنّع عـن إظهـار انـوثتي؟ أهـو المجتمع؟ أم تراه الإسلام؟ أم هما معـًا؟

لطالمـا كنـت أعتقـد أننـي عبـارة عـن تركيبـة هجينـة مـن المعـايير المجتمعيـة المصرية والأمريكية المعقدة مع دين الإسلام، كلها مجتمعةً وغير متناسقةٍ أودت بـي إلى الظهور على هذه الصورة الرافضة بتعصب للأنوثة وما ينشق عنها.

واقعةٌ أخرى لا تغيب عن ذاكرتي كانت في السنة الجامعية الأولى، حين تأخرنـا في أحد اجتماعات جمعية الطلاب المسلمين حتى حدود الثامنة أو التاسعة لـيلاً بعـد العشاء، هناك وبعد أن تفرّقت المجموعة واتجه كلٌّ صوب وجهته، وإذ بأحد الإخـوة يتجه إليّ أنا وثلة من الفتيات بعد أن خمَّن أنه من الخطر علينا السير وحيدات في عتمة الليل نحو مبنى السكن الطلّابيّ، فاقترب وسألنا على مسافة محترمة إذا ماكنـا بحاجـة لمن يرافقنا في طريق العودة إلى بنائنا؟ ثم ما لبث أن اقترح بمنتهـى الأدب أن يواصـل السير معنا حتى نعبر الحـرم الجـامعي الضـخم، الـذي كـان مليئـا حينهـا بالمتسكّعين والطلبة السكرانين.

كان عرضًا نبيلاً وشهمـًا يعبّر عن الرجولة من طرفه، إلا أن الغضب اشتعل ناراً فيّ لجرأته تلك! لقد وجدتها طعنةً مباشرة لكرامتي، كيف يجرؤ على التلميح إلى أنني لست قوية مستقلة قادرة على حماية نفسي؟ كيف يجرؤ على الإشارة إلى أننـي أنتظـر لرجل يراني ضعيفة محتاجة إليه؟ هل يظنّ أنه أقوى مني مثلاً؟

قبول هذا العرض كان يعني لي الاعتراف بضعفي وحاجتي، كان يعني لي التنازل بخزيٍ للهزيمة والتخلي عن الظفر باستقلاليتي عن الرجل، كان إقراراً صريحًا بأنني لا أختلف عن الفتيات الساذجات الأخريات، ولذا كان جوابي بكل بساطة وبرود: "لا، شكرا!" ثم دخلت مسكني وأنا أغلي.

كان هذا الظاهر مني، انفعالٌ وثباتٌ على صورة العنيدة المتماسكة، أما في الداخل فكنت أسائل نفسي بدهشة كيف وصل بي الحال إلى هذا الحد؟ لـمَ هذا الرفض العنيف لطلب صادق شهم؟ ما عهدته عن نفسي هو أنني شخص لطيف هادئ لا يُستفَز بسهولة، فلماذا استأت على الفور منه؟ ألم يكن من المحتمل فعلاً أن يعترض سبيلنا أحد المتسكعين السكارى؟ فالأخبار عن النساء اللاتي تعرضن للاعتداء هناك لا تكاد تنتهي!

لماذا تصرفت على هذا النحو المنفعل؟ هل جعلت الكرامة في صورتها المرسومة لي أولى من سلامتي؟

علامات استفهام كثيرة وصراع محتدم من التناقضات، أحسست أنني فعلا تائهة ومشتتة بدون وجهة أو بوصلة، من ينتشلني من حيرتي؟ لـمَ كل هذا الاختلاف بين الذكور والإناث؟ لماذا لسنا مثلهم؟ من يفك عقدة النقص وشعوري الدائم بالحرج من الجهر بأنوثتي؟

هل النساء هنّ نسخة سيئة ومشوهة عن الرجال فقط؟ هل نحن شيءٌ مقلَّد جاء خطأً إلى هذا الوجود؟ إذا كان الأمر كذلك، فلماذا أوجدنا الله على هذه الشاكلة من الأساس؟ لماذا لا نستطيع أن نكون شقائق الرجال في كل شيء؟ لم لا نكون نسخة أصيلةً عنهم؟

وذات ليلة، وبينما أنا غارقة في ظلمات حيرتي قررت الإمساك بالقرآن والبحث هناك عن إجابة تسكنني.

وبالفعل، أرشدني الله عز وجل إلى بداية الجواب.

كانت آية في القرآن قلبت الموازين، وانتشلتني من عذابات الحيرة والتآكل.

❊ ❊ ❊ ❊



الفصل السادس: التوجيه القرآني

تعبت كثيراً مع وصولي لهذه النقطة.

تعبت من النظر إلى الحياة كمنافسة مستعرةٍ بين الذكور والإناث، تعبت من الشعور الدائم بالحاجة للمقارنة مع الرجل والتفوّق عليه حتى أثبت ذاتي لنفسي ولكلّ الناس، تعبت من الشعور بالدونيّة بسبب ما أريد وما أخفي، أرهقني الدخول في معركة وهمية لا غالب فيها ولا مغلوب، في حربٍ مستنزفة استهلكتني وسلبتني راحتي وطمأنينتي كمن يعيش في متاهةٍ ضاع داخلها دون أن يعرف كيف الخروج.

كانت الجامعة أول مرة أعيش فيها بعيداً عن بيتي وعائلتي، حاولت فيها أن أجد موطئ قدمي بين الأقدام، بصمةٌ خاصةٌ أحقّق بها نفسي بنفسي، غير أنني مع ذلك ظللت مرتبطة بتفاصيل كثيرة من المحطات السابقة، وعلى رأسها القرآن الذي شكّل جزءًا كبيراً من البيئة التي كبرت فيها وترعرعت ولله الحمد، لذا لم أجد بداً من البحث عن راحتي بين دفتيه.

هذه المرة أقبلت على قراءته بروح عليلة تنشد التعافي من الصراع والتنافس، فتحت المصحف على سورة المائدة من غير تدبير مني، وإذ بعيني تسقط مباشرة على الآية ٤٨ منها: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾.

على الرغم من أن هذه الآية لم تأتِ على ذكر الاختلاف بين الجنسين بالعبارة، وعممت القول على العالمين كافة، غير أنّني حين قرأتها شعرت أنها أنارت معنىً غاب عن منابت الإدراك فيّ، معنى سيقلب الموازين ويخرجني من ضيق الحيرة إلى سعة السكون.

أحببت كلّ كلمة وكل حرفٍ فيها، كل جزءٍ منها لامس مكاناً عميقاً في داخلي، كل حرفٍ كان يخاطبني أنا، ومع أنني قرأتها مراراً قبل تلك اللحظة، إلا أنني أحسست آنذاك وكأنها المرة الأولى، كيف لا وقد جادت عليّ بعِبَر وحلول أزالت عني غشاوة التيه وجعلتني أرى الحقيقة على ماهي عليه بلا شوائب أو تزييف.

١- كيف تحكم على ما يعرض عليك كيفما كان؟

ثمة طريقتان في الآية للحكم على أي شيء؛ إما بقياسه على ما أنزل الله من الحقّ في كتابه العزيز، وإما بناءً على الحدس والأهواء، هذا الجزء منها يضعنا على مفترق طرق أمام سبيلين: إما الحق وإما الأهواء، ومن ثم يوجهنا الله لاتباع سبيل الحق المنزل من لدنه.

٢- الاتباع العاقل أم التقليد الأعمى؟

في بداية الآية يأمرنا الله بأمرين: أولهما إيجابي وثانيهما سلبي، وهما على التوالي: "احكم" و "لا تتبع"..

وهو ما قادني إلى القول إن التعامل مع أي عارضٍ أو مشكلةٍ يتمّ إما عبر التفكير العاقل الفطن على الأشياء ومن ثم الخروج بحكم سليم، وإما باتباع أهواء الآخرين وما يملونه علينا بقيلهم وفعالهم.

وقع في نفسي أنني كنت من هذا الصنف الأخير، أتّبع ما أملته عليّ أعراف المجتمع وأتخذ منها محددات للحكم على نفسي كامرأة، وكيف ينبغي أن أفكر وألبس وأكون.

عقلية "النساء = أمر سيّء، والرجال = أمر جيد" لم تكن أصيلة عندي في بادئ الأمر، لكنني سمحت لها باجتياحي وتعذيبي وزعزعة أمني واستقراري لسنوات حين جعلت المعيار هو الثقافة السائدة وما يظنّه الناس، وهو بالضبط ما لعبت النِّسوية عليه.

كنت تابعة مُعذَّبةً فقط، ولذا كنت بحاجة لفتح عيناي ثم جعل المعيار الذي أحكم من خلاله على نفسي هو كلام الله سبحانه.

٣- الاختلافات المتعمّدة:

بعدها يقول الحق سبحانه: "لكلٍّ جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً".

كنت أنظر للنساء دائما على أنهنّ النسخة الدنيئة الضعيفة من الرجال، كنت أرى الرجال هم المعيار المثالي لقياس إنجازاتي، عليّ أن أكون مثلهم إذا ما أردت العيش عزيزة كريمة، فهم الأصل ونحن التقليد.

غير أن هذه الآية نسفت كل تلك الأفكار وجعلتها دكـًا، فالله أحسن الخالقين هو الذي جعل الاختلاف سُنّة، الأصل في الحياة هو وجود نسخ مختلفة لكل منها شرعةٌ ومنهاج، لكل منها كتاب تعليمات خاص بها، وكل محاولة لتشغيل إحداها بكتيب الأخرى سينتج نسخة مشوهة بعيدة عما خلقه الله في أحسن تقويم.

٤- لكن لماذا؟!

ثم يقول تعالى: "ولو شاء لجعلكم أمة واحدة"

لو شاء سبحانه لخلقنا متماثلين نسخًا عن بعضنا، أو لجعل البشر كلّهم إما إناثًا وإما ذكوراً، لكنّه لم يفعل، إرادته اقتضت أن نكون مختلفين كما نحن، فما الحكمة إذن؟ لمَ لمْ يفعل ذلك جل جلاله؟

٥- الحكمة:

تأتي الإجابة مباشرة: "ليبلوكم فيما آتاكم"

لعلّ هذه أقرب جملة لقلبي في الآية، لما قرأتها رفعتني فوراً إلى مكانٍ مريحٍ لا تشويش فيه ولا غموض، فكلّ القصة وحبكتها: "امتحان"!

كل مخلوق له امتحانه الخاص، ليس منا مَن بيده الخروج أو الهروب منه، وكل ما أُعطيناه أو حُرمنا منه هو جزءٌ من هذا "الاختبار".

عندما وقر هذا المعنى في قلبي تغير موقفي من الاختلاف ومن الحياة جملةً وتفصيلاً، هذا المعنى مدّني بالسلام والهدوء، فالأمر مقصود وبكل حكمة، إنه "امتحان".

٦- كيف أنجح في الامتحان؟

كان سؤالي مباشرة بعد علمي بأنّي ممتحنة هو: كيف أجتاز الاختبار بنجاح؟

فكان الجواب: "فاستبقوا الخيرات"

عمل الصالحات، إجابةٌ على بساطتها أخذت أنفاسي، ولاقتني بالوضوح والصفاء، أتت على ذاك البنيان المهترئ الذي اتخذت موطنًا وهدمته من القواعد، الهوس المستمر بالرجال الذي ملأت به رأسي لسنوات، الأفكار المضلّلة التي كانت إجابتها في اقتحام كل مضمارٍ ومسابقة كل الخلق في طرقهم، الإملاءات التي تكرّر أن

الحل الوحيد بسحق الأنوثة وقتل المشاعر والمخاوف التي قد تخون صاحبها على حين غفلةٍ وتسحبه نحو المذلة والضعف.

كان عليّ أن أفعل كلّ هذه الأشياء المستنزفة ليس لأنني أريدها، وانما لأن عرش المساواة يقضي بذلك عليّ!

كانت الفكرة صراع وجود! كان ذلك كله مرهقًا، غير منطقي، وغير ممكن وبلا جدوى!

كلها ضلالات وأثقال انزاحت عند صدري بعد أن تلقيت الإجابة القرآنية، كانت دعوة صريحة للتحرر تناديني: "أسقطي كل هذا من حسابكِ، كل ما عليكِ فعله هو الذي خُلِقت لأجله (أنتِ)، ركزي في امتحانكِ فقط وما ستسألين عنه، ما لكِ ومالهم؟ هوني عليكِ".

٧- النهاية:

"إلى الله مرجعكم.."

هذه الجملة كانت الربيع لقلبي والحياة لروحي، أهدتني شعوراً بالارتياح لا يوصف.

لكلّ اختبار إجابةٌ وعاقبة تليها، وكذلك شأننا، فبمجرد انتهاء الامتحان سنرد جميعنا إلى الكبير المتعال، هناك حيث سيجد كل منا ما عمله محضراً.

فكرةٌ رصينةٌ أخرى لا مكان فيها للرّجل كمعيار، فالمسألة كلها بيني وبين خالقي وحده سبحانه، ما يحكم قيمة أفعالي وصحّتها من عدمها هو مدى استجابتي لأمره وتسليمي بقضائه وحكمته، كل ما عليّ هو أن أكون على مراده هو منّي لا مرادي منه.

ثم ختمت الآية بعبارة "تختلفون" لتكتمل الصورة ويتجلّى الاختلاف في معناه الأتم، حيث لا حاجة للتحسس أو القلق، فكوني أنثى هو إرادة الله سبحانه وهي مدار اختباري..

(الآية ٤٨ من سورة المائدة) لن أنسى هذه الآية العظيمة والمعنى الجليل الذي بثته في أوصالي ما حييت، فقد كانت -فعلاً- غيثي بعد الظمأ.

قرأتها مرّاتٍ عديدة، أغلقتُ المصحف ثم أخذت ألملم هذه المعاني كلها في رأسي، ثم أعدت فتحه وقلت لنفسي: "نعم، هذه هي الإجابة التي تبحثين عنها منذ سنوات، إنها بين يديك، والآن بتِّ ترينها، الحمد لله"

كلّ ذاك الصراع لا أصل له، إنه مشتعل في رأسي فقط، أشقيت نفسي بنفسي حين أسلمتها للجوانب المظلمة من الثقافة والبرمجة الاجتماعية المشوهة وانتهاءً بالطرح النسوي العقيم، هذا ما أهدتنيه النِّسوية بكل تناقضاتها البعيدة عن الهدي القويم.

وفي ظلال القرآن عرفت الحريّة الحقّة بعد أن أهدرت سنيناً من عمري في الجري وراء السراب.

هذه كانت البداية في رحلتي للتغيير، إذ إنني احتجت لسنوات أُخر لأستعيد عافيتي بالكامل من تلك السموم.

فالعادات السيئة لا تموت إلا ببطء شديد.[1]

---

(١) من جميل ما يمكن تطبيقه من هذا الفصل هو قراءة القرآن بحثاً عن حاجاتنا وأسئلتنا، ومن ثمّ حين نجد أي آيةٍ تخاطبنا نتوقف معها ونتأمّل فيها ونعيدها ونكررها، نقرأ كلّ تفسيرٍ نصل إليه لها وكل حديثٍ وكلّ أثرٍ متعلّقٍ بها، نستخلص تطبيقاتها وفوائدها، ثم نستحضرها فعلاً كلّ ما تكررت تلك التساؤلات، وهذا مُعينٌ كبيرٌ على الارتباط بكتاب الله سبحانه واستقاء الطمأنينة منه.



الفصل السابع: الزواج

لم تتبخر الأفكار النسوية من ذهني بين ليلة وضحاها.

ولذلك كان طلب شابٍّ من جمعية الطلاب المسلمين لرقم والدي ليفاتحه بالزواج منّي محركًا لكثير من الخوف والقلق داخلي ناحية الفكرة التي أعادتني إلى حلبة المواجهة الفكرية المحتدمة سابقًا.

لا يمكن! كيف يريدني هذا الشاب للزواج! لماذا؟ هل يبدو عليّ سمت اللواتي يُخطَبن؟ هل يبدو أنني غير قادرة على تدبير حياتي أو الاستغناء عن مساعدةٍ رجلٍ ما لي؟ كيف يراني الناس؟ أيّ انطباع أترك فيهم عنّي؟ ما الذي يحاول قوله هذا الرجل؟

فكان أن رفضت عرضه، الزواج ليس للمستقلات أمثالي، إنه للضعيفات العاجزات فقط!

لكن مرور السنوات أشعرني بأنّ رفضي للشاب كان متسرعًا وبلا مبرر، ولذلك عدت للتفكير بالأمر ومنحته فرصة حين عاد لتكرار طلبه بالتواصل مع والدي حتى خرجت تلك الـ "نعم" مني بعد تردد طويل، وحتى بعد المحادثات الطويلة التي دارت بين عائلتينا حول الموضوع، كان هناك بقايا من القلق والشك لديّ في الإقدام على هذه الخطوة وإن لم أكن أعرف حقًا ما هو شعوري وما سببه، هل هو نتيجة لعوالقي الفكرية المرتبكة حول اختلاف الجنس؟ هل هي عن الزواج؟ أم ماذا فعلاً؟

وبحمد الله، فمع نهاية العام الجامعي الأخير كان قراننا قد عُقد.

نعم، تزوجت.

خالفت درب كل زميلاتي في الدفعة وأمام استغراب الجميع، كان مضحكاً أن تتزوج فتاة الأمس المعارضة لمؤسّسة الزواج، كيف تتحول فجأة وتتزوج في سن صغيرة ضد أفكارها التي كانت تدعو لها!

وانتهت السنة الجامعية الأخيرة وتخرجت، لكن تلك كانت وقفتي في ذاك العالم، لم يكن أمامي عملٌ ينتظرني، لا دراسات عليا في استقبالي ولا حتى شغلٌ تطوعيٌّ أتباهى به.

أبداً.. لا شيء إلا أنني سأكون "زوجة" لا أكثر.

زملائي كانوا قد حجزوا مقاعدهم في كليات الطب، أو المحاماة، بعضهم شقوا طريقهم صوب الوظائف المرموقة في وول ستريت وغيرها، أما أنا فبدأت عامي الأول بعد الجامعة كربة بيت متخرجة من هارفارد للتو، ويا للإنجاز!

الأمر شوّش فكري وآلمني مدة، فمفاهيمي القديمة حول الأنوثة وحقيقتها وقيمة ما يترتب عليها من أدوار واستحقاقات كلها عادت تراودني وتشعرني أنني أهدرت مقعدي الثمين في هارفارد سدىً حين لم أحسن استغلاله، هناك يقولون لك: إن عليك بعد أن تحصل على شهادتك من هذه الجامعة الفخمة أن تستثمرها في تحقيق "إنجازات عظيمة"، يقولون إنك يجب أن تبدأ بـ "تتبع شغفك"، تكافح حتى "تبلغ كل إمكاناتك"، لتحقق "تغييراً في المجتمع"، كيف لا وأنت من "النخبة" الذين درسوا في هارفارد!

لكنني تزوجت، أصبحت ربة بيت تطبخ وتكنس وتنظف، هذا كان كل شيء عندي، هو توصيفي ومهنتي.

هل كان هذا إنجازاً عظيماً؟ هل هذه هي أعلى إمكانياتي؟ ماذا عن شغفي؟ ماذا عن تحقيق التغيير في مجتمعي؟

كثيراً ما كنت أمتلئ خجلاً بنفسي حين ألتقي زميلاتي اللواتي واصلن المسير نحو الأحلام والمجد الذي لطالما تطلعت إليه.!

فهذه تحدثني عن منصبها المؤسساتي، وتلك تسهب عن التحاقها ببرنامج دراسات عليا شهير، بينما أنا ههنا في بيتي وبين جدراني، لم أفعل شيئاً، ليس عندي ما أتحدّث عنه.

ناقشني زوجي مراتٍ كثيرة حول الموضوع بكل هدوءٍ وحكمة، حاول طويلاً أن يريني الأمر من زاوية أكثر واقعيةٍ بعيداً عن المعاني التي ركنت إليها وبقيت حبيسة داخلها، كنت أرتاح لكلامه مدّةً، ثم لا ألبث أن أعود لبث الشكاوى من وضعي البارد بلا هدف أو إنجاز غير كوني ربة بيت[1]. لقد بقي في ذهني أن هذا الذي أعيشه لا يدخل في أي تعريف للمرأة الناجحة، فحتى حين لم أرد أن أكون نسوية، كنت أرى هذا الوضع مثيراً للشفقة بكل وضوح!

تعلمت في سنتي الأولى من الزواج كيف أهتم بنظافة بيتي وشؤونه، حصلت على رخصة القيادة، ودخلت دوراتٍ مكثفةً في اللغة العربية الفصيحة والتجويد، لكنني لم أشعر بالكفاية.

في السنة التالية عملت مرشدةً إسلامية في جامعة خاصة بالنساء، وهو ما أشعرني بتحسن كبير، أحببت العمل نفسه، أحببت الفتيات والمهمات المطلوبة مني، لكن

---

(١) هذا لقاءٌ يجمع الكاتبة أم خالد وزوجها الأستاذ دانيال حقيقاتجو في كلامٍ قيّمٍ عن هذه النقطة: https://www.youtube.com/watch?v=٨٠vdZff٠bVE

هذا لم يكن كلّ شيء، فالعمل أشعرني بأنني أعود للقيام بما عليّ فعله، هناك شعرت بأنني إنسان طبيعيٌّ من جديد، امرأةٌ محترمة لديها استقلالها ودخلها ولا تعتمد على زوجها ليعيلها.

كنت متزوجة، نعم، لكن اندفاعي لكسب دخلي الخاص والاستقلال لم تكن قد خمدت، لم أشأ المكوث في البيت كربّةِ بيت لا حول لها ولا قوة، كيف أمدّ يدي لزوجي كلما احتجت شيئا صغيراً كان أو كبيراً، لا يمكن!

هذه المرحلة لم تستمر على حالها، فسرعان ما تغيّرت عندما أضيف لدوري كزوجة دورٌ آخر تماماً.. ذاك هو دور الأم..

* * * *



الفصل الثامن: الأمومة

ظللت سنواتٍ طويلة أقنع نفسي بعدم رغبتي بالأمومة، أبداً.

ساعدت في رعاية أشقائي الصغار وأنا يافعة، غيّرتُ مئات الحفاضات، امتلأت ثيابي بكثير من الطعام المبصوق أثناء إطعامهم الفواكه والخضار المهروسة، مهمّة إلباسهم لم تكن تختلف عن محاولة إدخال أخطبوط يتلوى ويتململ في أغطية قماشية قاسية، إضافة لذلك فقد قضيت ساعات في ملل هَزِّهم حتى يهدؤوا ويناموا.

لقد اكتفت تلك الفتاة بهذا القدر من التربية والرعاية، لم يكن لديها أي استعداد لفعل الشيء نفسه مع دفعةٍ جديدة من الصغار، إنها مهمة مضنية مليئة بالمهام والأشغال، لكن بعض النضج والتقدم في السن، وخصوصاً بعد الزواج جعل ذاك الشعور يضمر شيئاً فشيئاً في داخلي ليظهر بدلاً عنه رغبة ملحّة في الإنجاب، لقد أردت أن أكون أماً.

بعد مرور عامين على تلك الوظيفة في الجامعة، وإذ بي أحمل بين أحشائي مولودنا الأول، وقبل موعد الولادة المتوقع بأشهر قليلةٍ تركت عملي، فحتى مع احتفاظي ببعض بقايا ومخلفات خرافات الاستقلال والمرأة الممكنة إلا أنني كنت أريد في قرارة نفسي المكوث في البيت للتفرغ لتربية طفلي ورؤيته وهو ينمو اليوم تلو الآخر، ولذلك لم أتوانى عن اتخاذ هذه الخطوة مدفوعة بغريزتي الواضحة.

لم أرد أن يقوم أي شخص آخر بهذه المهمة عني، عزمت على أن تكون تربية هذا الطفل وما سينعم الله علينا به من ذرية من نصيبي أنا، أردت أن أكون أفضل أم

يمكـن لهـذا الصـغير أن يحصـل عليهـا، أردت أن أشـهد كـل مرحلـةٍ مـن حياتـه بكـل تفاصيلها دقيقها وجليّها، لم أرد تفويت طفولة أي من صغاري، فتلك كانـت وظيفتي وميدان عملي، أيّ عمل عساه يكون جديراً أن أفوّت فيه ولو ثانية من حياة طفلي؟

عندما أخذ طفلي الأول أولى أنفاسه في هذه الدنيا حملت جسده الهش الرقيـق وأنـا أنظـر بدهشـة لخلقتـه الصـغيرة التـي تجلـت فيهـا كـل معـاني الإجـلال والتسـبيح للعظيم الذي أحسن كـل شـيء خلقـه سبحانه، كيـف اسـتودع الله هـذه الـنفس عنـدي وعهـد إلـيّ القيـام علـى تغـذيتها ورعايتهـا وتعليمهـا وإيوائهـا؟ كيـف أوكـل الله لـي ولزوجي هذه المهام العظيمة ونحن البشر الضعفاء بذواتنا؟

كُتلة الرقّة تلك كانـت رعيّتـي التـي اسـترعاني الله عليهـا، كانـت تكليفـاً شـعرت أمامـه بالرهبـة والثقـل والانبهـار في آن واحـد، كيـف سـأربي هـذا المخلـوق؟ كيـف سأتمكن من رعايته وتغذية جسده، تشكيل عقله، وعجن شخصيته؟

تفاصيل هذه العلاقة وأحداثها تتسم بصبغة متعالية عن الأقطار الدنيوية المادية كقطعة من نسمات الآخرة، إنها من عظيم معاني الرحم وما ينشق عنه.

بينمـا احتضـنت طفلـي بـين ذراعـي للمـرة الأولـى نـابني شـعور لـم أجربـه قـط عزمت بموجبه وقـررت حمايـة طفلـي وعـدم السـماح لأي ضـرر أن يمسـه بحـول الله وقوته، لا من الآخرين، ولا مني أنا. قررت أن لا أسـمح لأي مـن أوهـامي وارتباكـاتي أن تؤذي طفلي البريء الذي يرقد بثقـةٍ وضـعفٍ شـديدين بـين يـدي، أيّـاً كانـت تلـك الحماقات النِّسوية التي امتلأت سابقـاً بها عن الاستقلال أو التمكين أو القوة، فقـد آن لها أن تختفي، لن تمس أدرانها هذا النقاء، لن تعبر إليه مني.

كان هذا المخلوق يعتمد عليّ مئةً في المئة في كل أمره، كيف يمكنني في هذه الحالة أن أطلب الاستقلال عنه؟

هناك وأنا أحمل صغيري الذي جعلني الله أمـًا له غدا وثن الاستقلال جليـًا أمامي على حقيقته: مجرد هراء لا طائل منه.

ترتبطين كأمٍّ بصغيرك في أسمى العلاقات الإنسانيّة، تصبحين في إصغاء تامٍّ وانسجام مبهر مع كلّ تفاعلاته، أنت الوحيدة التي تدركين كل تفاصيله من بين البشر، معدّل تنفسه وإيقاعه، حرارة جسمه، تعبير وجهه ولغة جسده، لا تخفى عليك حاجاته ومراده، وإن كانت أبجدية تواصله الوحيدة هي البكاء والصراخ وهو بين يديك، فهو في قمة عجزه يعرّف لكِ معاني الثقة والحب والرحمة.

علماء النفس يسمون هذا بنظام الارتباط الخاص، فهو نظام عصبيٌّ مدمجٌ يدفع بني آدم إلى البحث باستمرار عن روابط مستدامة مع الآخرين، وهو ما يعني بالدرجة الأولى مقدّمي الرعاية الأساسيين الذين هم عادة الأب والأم، لذا فإنّ أي تعطيلٍ أو إخلالٍ بهذا النظام في المراحل التكوينيّة للطفل قد ينتج عنه آثارٌ وتبعاتٌ طويلة الأمد إلى مستدامةٍ أحيانـًا.

الأمومة نظفتني من بقايا الأكاذيب النسوية التي بقي كثير منها عالقـًا في أركان روحي وزوايا ذهني كخيوط عنكبوت قديمة، بكل ما احتوته الرحلة من وقفاتٍ منذ بداية الحمل إلى الوضع ومن ثمَّ الرضاعة وانتهاءً بالسعي المستمرِّ لتربية وبناء إنسانٍ سليم، كانت تلك أكثر مهمة مُحرِّرَة قمت بها، كانت تمكينـًا حقيقيـًا لي، إنها أصعب ما عملته وأكثره إسعاداً لنفسي، إنها المكان الذي شعرت فيه أنني أتحدى نفسي، هي

رحلة اجتمعت فيها معاني المكابدة والصبر والثواب، هي صعوباتٌ تهون مقابل ما فيها من لذات..

رُزقت بأربعة أطفال في حدود خمس سنوات ونصف ما شاء الله..

كل ضحكةٍ خاليةٍ من الأسنان، كل لمسة ناعمة لأصابع صغيرة على وجهي، كل ضحكة وكل قهقهة معدية، كل نظرةٍ فضوليّةٍ وكل لحظة صخب وازدحام.. كلها تغرقين في حبها في هذه الرحلة العجيبة، فحين يرتمي ذلك الجسم الصغير في حضنك، يعانقك، يلف ذراعيه الصغيرتين حول عنقك، لحظتها ينبض قلبك ويتدفق حبًا لا تسعه كلماتك، شعور لا مرادف له في كل قواميس اللغات.

نعم، الأمومة تخرجك من حيّز الاعتياد والإلف، في رحابها تنتبهين مجدداً لتلك التفاصيل التي كانت مملّةً من حولك؛ خنفساء صغيرة على الارض، ورقة تسقط من أعلى الغصن، سنجاب يجري هناك، رياح تحرّك تلك الغيوم.. كلها ستثير دهشة طفلكِ وستوقظ حماسه وهو يلاحظها لأول مرة ويحدّثك عنها، وستبثّ دهشته الحياة في نظرتكِ القاحلة في كل ما اقتات الاعتياد والتكرار عليه، سيصحو الطفل القابع في داخلك من جديد، ستمنحك أسئلته وملاحظاته فرصة العودة بلا تأشيرة إلى ديار اللعب والطفولة، ستتحوّل الأشياء العادية استثنائية في عينك وأنتِ تراقبينها بعيني طفلك الحبيب هذه المرة.

هذا لا يعني أن مسيرة الأمومة محفوفة بالزهور والفراشات وخيوط الشمس الذهبية، فلست هنا لألفّ الحقائق بورق هدايا برّاقٍ سرعان ما يتساقط، بل هناك محطات صعبة ومؤلمة فعلاً في الرحلة كما هو الحال في كل مناحي ومنعطفات الحياة

الأخرى، الأمومة صعبة، فيها لحظات وحدةٍ وإرهاقٍ كثيرة، فيها الأرق وقلة النوم، وفيها كثير من المهمّات والمشكلات والعقبات والمتغيّرات.

لكنّ الأمومة مع ذلك تربّيكِ بشكل لم تتوقعينه، إنها تدفعك إلى محاولة الارتقاء بنفسكِ وتطهيرها من كل ما لا يرضيكِ من صفاتكِ، تجعلكِ قادرةً على الوقوف في وجه مخاوفك بحثًا عن الطمأنينة والأمان، تأزّكِ إلى البحث عن أفضل نسخة منكِ، إن لم يكن من أجلك فمن أجل صغارك الذي يتطلعون إليك بإعجاب وترقب.

إنها تشعركِ بأنّكِ الآن دخلتِ مرحلة مسؤوليةٍ أكبر وأهم من كلّ ما سبق، أنتِ الآن قدوةٌ وراعية، وبذلك تكاد الأمومة تكون فرنًا تصقل فيه شخصيتك على مهلٍ، كقطعة ذهب تنقيها الحرارة وتخلصها شيئًا فشيئًا من شوائبها، فإن عملتِ على تخليص نفسكِ من إشكالاتك واستشعرتِ الفرص العظيمة المتاحة لكِ في رحلتك وجدتِ نفسكِ تخرجين من الناحية الأخرى شخصًا أفضل بكثيرٍ بإذن الله.[1]

---

(١) وردت اعتراضات كثيرة بعد هذا المقال فحواها: أقدر مشاعر الكاتبة وما مرّت به وما تتحدث عنه، لكن ما يبدو لي هو أنها تحمل النّسوية مسؤولية مشكلاتها الخاصة بلا أساس!

وللرد على هذه النقطة ينبغي أولاً فك الارتباط الموجود في أذهان الناس بين النسوية وبين حقوق المرأة وإرادة الخير لها، ومن ثم توضيح أن النِّسوية أيديولوجيا بدأت منذ أواخر القرن التاسع عشر ومازالت مستمرة إلى اليوم، وإن كانت في تطور مستمر وفي توجهات مختلفة بين المجتمعات فإنها كانت ومازالت وعلى اختلاف تياراتها تنادي بضع ثوابت أساسية أهمها المساواة وبغض الأبوية، ولأن الأمومة كغريزة ومتطلبات تنقض أيديولوجيا المساواة فإنها مرفوضةٌ أو مشوّهةٌ في النسوية، تقول سيمون دو بوفوار إحدى أهم الأصوات المؤسسة للموجة الثانية: لا ينبغي أن يسمح لأي امرأة بالبقاء في بيتها لتربية أطفالها، ينبغي على المجتمع أن يكون مختلفاً تماماً، لا ينبغي السماح للنساء باتخاذ هذا القرار، تحديداً لأن السماح به سيجعل كثيراتٍ يتخذنه" [لقد غيرت حياتي، بيتي فريدان، ص٣٩٧]. =



الفصل التاسع: أن تبلغ أعلى إمكاناتك

ما الذي يعنيه أن يبلغ الإنسان، رجلاً كان أو امرأة أعلى إمكاناته؟

لنرى إذا ما كان بإمكاننا تفكيك هذه العبارة التي بتّ أراها ملغمة ومشهرةً كسلاح في وجه النساء على وجه الخصوص.

"كن كلّ ما تستطيع أن تكونه" هذا شعار الجيش الأمريكي، والذي لا يختلف فعلياً عن الشعارات -أو الهمزات- النسوية التي تهمس لامرأة العصر: "حققي أقصى إمكاناتك".

هو ذاته..

= ولأن الزواج فيه أدوار زوجية وتقاسم غير متساوٍ للسلطات بحسب قوانين اجتماعية أو دينية ثابتة فهو ترسيخ للسلطة الأبوية بحسب النسوية، تقول كيت ميليت: "إن الهدم الكامل للزواج التقليدي وللأسرة النووية هي الأهداف الثورية أو الطوباوية للنسوية" [العائلة المنيعة، كمبرلي إيلس، الفصل الرابع].

وهذا الفكر هو تمثّلٌ للحداثة في الأسرة وحياة الإناث، لأنه يقدّس التقدّميّة والتغيير ويرفض أي تقاليد أو ثوابت لمجرّد كونها كذلك، ولهذا صورٌ لا تخفى في الحياة اليومية سواء أتت تحت عنوان النسوية أو غيره، فقد كتبت صحفية أسترالية في مجلة الديلي تلغراف أنه ينبغي أن يمنع القانون بقاء الأمهات ذوات الأطفال الذين في عمر المدرسة من البقاء في البيت (ديلي تلغراف، ٢٠١٧).

فرفض النسوية للزواج والأمومة وادعائها أنهما تقيد للحرية مما لا يخفى ولا ينكره الناشطون النسويون الصريحون أساساً سواءً في الكتابات الأدبية أو بالتدرج الذي تسمح لهم به المجتمعات في الحياة الواقعية، ولهذا تمثّلاتٌ كثيرةٌ سواءً في المسلسلات والأفلام أو كلام السياسيين أو الخطابات الرسمية التي تروج للناس، وقد كتبت في ذات الموضوع مقالاً على مدونة السبيل، بعنوان النسوية ومعادلة الأسرة، وهذا رابطه: https://bit.ly/٣rKXuSh

كلٌّ من الجيش والنِّسوية يلعبان على نفس الوتر ويستخدمان ذات الوسائل في استقدام الجنود الجدد الذين يملؤونهم رغبةً وهميّة في الانضمام إلى مسعاهم والعمل بلا وعيٍ في سبيله، فتكون النتيجة في فردٍ قادرٍ على رفع السلاح في أرض المعركة كجندي مخلص بسذاجة لقضيتهم.

كلاهما يوهمانك أن هذا الانضمام سيمكنك من الغوص في مجاهل نفسك والاستفادة من كافة أجزائها، لا سقف ولا حدود لإمكاناتك، إياكَ أن ترضى بما أنت عليه! تطلّع دومـًا للأفضل! أنت تستطيع!

فمهما وكيفما كنت الآن.. هناك ما هو أكثر!

لا تركن، لا تخنق قدراتك، لا تكن عاديـًا، يمكنك أن تكون أكثر من ذلك بكثير.

الجيش يقول: "أنت الآن مواطن، لكن ذاك ليس مقامك، بل مقامك هناك كجندي يحمل السلاح في أرض المعركة ويقاتل" وبالمقابل فالنسوية تقول لكِ: أنت الآن امرأة، أم، أخت، زوجة، ابنة.. أنتِ أنثى عادية، لكن ذاك ليس كل ما يمكنكِ أن تكوني عليه، ما يليق بكِ هو أن تكوني حرةً مستقلة بذاتك، لقب مديرة تنفيذية في شركة كبرى ينصاع لأمرها أشد الرجال، كوني محاربة، إلهة -أستغفر الله-، قويّةً، مخيفةً، متمردةً لا تنصاع لأحد!

وأمام تلك الشعارات أقف مع كل امرأة عاقلة وأقول: لا، شكراً.. انا امرأة أنثوية تقليدية، وذاك يكفيني..

مجرد قدرتي على القيادة بأعلى سرعة يصل إليها محرّكي على الطريق السريع لا تعني أنني يجب أن أفعل!

كونكَ يمكنك أن تكون أو تفعل شيئا، لا يعني أنه "يجب" تكون كذلك!

فالحكمة ليست أن تسعى بشكل أعمى ودؤوب لتحقيق كل إمكاناتك أيـًا كانت، ليست أن تجتهد لتكون كل الذي يمكنك أن تكونه في الحياة، فالاحتمالات لا نهائية والخيارات ممكنة، إنما الحكمة أن تتوقف وتحدد عن بينة وبصيرة ووعي ما هي الجوانب التي تستحق أن تعمل على بلوغها وتحقيقها من إمكاناتك تلك.

كل تلك النداءات الخبيثة التي على هذه الشاكلة من الجيش أو النسوية لا تعدو أن تكون تلاعبات صريحة في رأسك.

لا يكفي أن تكون مواطنـًا جيداً، يجب أن تكون جنديـًا أو قنبلة نستخدمها في فوهة مدافع حروبنا، لا يكفي أن تكوني أما أو أختا أو زوجة.. بل يجب أن تكوني مستهلكة فردانية، يجب أن تكوني ترسا يخدم بغباءٍ مصالح اقتصادنا الذي لا يعبأ بك.

هل فهمتِ اللعبة؟ أرأيتِ الخبث فيها وكيف صرنا أنا وأنتِ حجارتها التي يحركون.

الآن، وفي هذه المحطة بالضبط من حياتي على هذه الأرض، أتحدث بلسان أمةٍ مسلمة مسلّمة لخالقها، في عهدتي أربعة أبناء أعلمهم بنفسي في بيتي حيث أقتسم الحياة مع زوج قوام محب لأسرته، تحوطني عائلتي الممتدة، ودائرة محدودة من الصحب والمقربين.

أقول من موقعي هذا كأمةٍ لله وزوجةٍ وأم وابنةٍ وأخت: إنني أشعر أنني الآن حققت أعلى إمكاناتي، الآن وجدت مضمار السعي الذي يليق بي، الآن أدركت

وظيفتي، وأنا الآن أبذل ما آتاني الله من وسع وقوة لتأديتها، هذه الصفات والمهمّات منحت المعنى لكل فعل أو قول يصدر عني.

ماذا عن شهادتي التي نلتها من هارفارد؟ ماذا عن "الأشياء العظيمة" التي تنتظرني لتحقيقها؟ هل ضاع كل شيء؟

أقول: هل هناك أعظم من حمل أنفاس مخلوق آخر بداخلكِ؟ هل هناك أعظم من إنجابه برحمة الله إلى الدنيا؟ حياة أخرى قوتها منكِ وفيك أوكِلت إليكِ رعايتها وتهذيبها وتعليمها، ما الإمكانات التي تفوق ذلك؟

أي وظيفة تلك التي أسمى وأكمل من بناء الإنسان؟

يقولون أشياء عظيمة، أي ثغر أعظم من تهيئة وتشكيل أفرادٍ في جيل صالحٍ من المسلمين سليمي الفطرة يصدعون بالحق ويرفعون راية الإسلام؟

لا تزال حياتي مليئة بالتحديات والكبوات، لكنني لم أعد أشعر بالحيرة والاضطراب، أنا الآن راضية عن نفسي كمخلوقة ضعيفة بذاتها، لم أعد أعبأ بمحاولة الظهور بشكل مصطنع يخدم الرؤى المجتمعية وما يطلبه السوق الرأسمالي، بل أنا الآن أشعر بالطمأنينة والامتنان والراحة تملأ أركان روحي، أعلم أنني بالمقاييس النسوية فاشلة ومثيرة للشفقة تمامـًا، مجرّد أم ماكثة في البيت تقوم بأشغاله الرتيبة، غارقة في عملٍ مَهين لا مال عليه، رعاية أطفال مملّين، وفوق ذلك أنتظر ببؤس النفقة من زوجي، أدوار مهينة لا قيمة لها حسب المزاعم النسوية.

أعلم ذلك أكثر من أيّ شيء، لكن ثم ماذا؟ هل أقضي العمر سعيـًا لرضاهم عني؟

لقد أصبحت أعرف هويتي، أدرك دوري ولله الحمد، لقد نضج تفكيري واستقرّ بعد أن أجاب القرآن عن كل تساؤلاتي وانتشلتني آياته من التيه والحيرة القاهرة، أنا اليوم مسلمة وأمة خاضعة لأمر ربها، توقفت عن شحن أحكام الإسلام بالأفكار الدخيلة الوافدة حين لا تناسب تطلعاتي وطموحاتي المستوردة، توقفت عن ذلك واتّخذت من التسليم والتوكّل على الله وحسن الظن به سبحانه عدتي وزاد مسيري ما بقيت أنفاسي.(١)

(١) وردت اعتراضات وتساؤلاتٌ متنوعةٌ على هذا المقال أوجزها في فحوى سؤالين:

لعلَّ الكاتبة لا تحبّ أو لا تريد القيام بأيِّ عملٍ خارج البيت، لعلّها لم تملك طموحاً عالياً يوماً فوجدت راحتها في بيتها، لكنّ هذا لا ينطبق عليّ أنا!

الكاتبة تؤصل هنا لفكرة مهمة وأساسية جداً، وهي التي نقرأها في حديث رسول الله ﷺ إذ جَاءَهُ رجلٌ مِن أَهْلِ نَجْدٍ ثَائِرَ الرَّأْسِ، يُسْمَعُ دَوِيُّ صَوْتِهِ ولَا يُفْقَهُ ما يقولُ، حتَّى دَنَا، فَإِذَا هو يَسْأَلُ عَنِ الإسْلَامِ، فَقالَ رَسولُ اللهِ ﷺ: خَمْسُ صَلَوَاتٍ في اليَومِ واللَّيْلَةِ. فَقالَ: هلْ عَلَيَّ غَيْرُهَا؟ قالَ: لَا، إلَّا أنْ تَطَوَّعَ. قالَ رَسولُ اللهِ ﷺ: وصِيَامُ رَمَضَانَ. قالَ: هلْ عَلَيَّ غَيْرُهُ؟ قالَ: لَا، إلَّا أنْ تَطَوَّعَ. قالَ: وذَكَرَ له رَسولُ اللهِ ﷺ الزَّكَاةَ، قالَ: هلْ عَلَيَّ غَيْرُهَا؟ قالَ: لَا، إلَّا أنْ تَطَوَّعَ. قالَ: فأدْبَرَ الرَّجُلُ وهو يقولُ: واللهِ لا أزِيدُ علَى هذا ولَا أنْقُصُ، قالَ رَسولُ اللهِ ﷺ: أفْلَحَ إنْ صَدَقَ. (رواه البخاري)

فالمطلوب وطريق الفلاح والنجاة الذي ينبغي لكل البشر سلوكه واضحٌ يفهمه كل أحد ويستطيعه كل شخص، فإن قام به المرء فاز وإن حاد عنه وقام بما يظنه أفضل منه خسر، وهذا ينطبق تماماً على أدوار الأمومة التي فيها الواجب الأساس، وهنا لا يهمّ ماذا أحب وماذا أكره وهل أسمي هذا طموحاً أم أسْراً أم غير ذلك، إنه في الأصل واجبٌ خُلِقتُ لأقوم به وعليه، فإن قمتُ به ثم أردتُ بعدها الزيادة عليه أو لا فالحالتان تصحّان طالما فيهما صدق النية وصلاح العمل، والحالة الأولى عظيمة جليلةٌ لما قام بها حق القيام والأخرى كذلك لمن تناسبه وجدوله وطاقته.

ماذا إن كانت المرأة قائمة بما عليها في بيتها وأسرتها ومسؤولياتها تجاه ربها ونفسها ثم وجدت سعةً من الطاقة والوقت للقيام بما هو أكثر؟ لا يعني هذا أن دورها في أسرتها غير كافٍ، لكن ماذا إن استطاعت القيام بما هو أكثر؟

هذا بالضبط ما تفعله الكاتبة وهي تجمع لنا تجربتها في هذه الكلمات، وهو ما نقوم به أنا وأختي =

الفصل العاشر: أنثى أنثوية، لا نسوية

في الختام، وبعدما سردت لكم قصة تخبّطي في سراديب النسوية وعبوري من ظلامها إلى فهم الأنوثة الحقيقية، إليكم بعض ما منّ الله عليّ به من دروس وعبر في هذه الرحلة.

١- الأنوثة:

لم أعد أشعر بالارتياب أو الحرج تجاه مفهوم الأنوثة، بل على العكس، لقد تبيّن لي أنّه يكاد يكون التّعبير الأفضل والصورة الأتم لأيّ أنثى سليمة الفطرة، فكما أنّ الرجولة هي الوضع الطبيعي الصحيّ للرجال، فالأنوثة كذلك هي الإطار الذي من خلاله تؤدّي المرأة وظيفتها دون أن تستهلك نفسها في محاولة إعادة تعريف وتشكيل ذاتها نحو الرجولة والمعايير الزائفة التي باتت تصف النجاح والإنجاز.

٢- الحياء:

بخلاف ما تروج له النِّسويات العلمانيّات وتهمس به في آذاننا، فإن الحياء ليس مظهراً للضعف، تماماً كما أن الوقاحة ليست من علامات القوة!

= كوثر إذ نترجمها، فالسؤال كأنه يقول: ماذا إن كان الرجل منفقاً على بيته معطياً أصحاب الحقوق عليه في حياته حقوقهم، ثم أراد القيام بعملٍ تطوعي في جمعيةٍ خيرية مجاورة، ما الرأي في ذلك؟ فإن كان الفعل "الأكثر" المقصود في أصله محموداً فهو محمود، وإن كان مذموماً فهو مذموم، لكنّه في الأساس تطوّعيّ وزائد ولا يساوي إثبات النفس ولا تحقيق الذات، والأمر كذلك مرتبطٌ بفهم المرء لحياته كفردٍ مسلمٍ مسؤولٍ عن وقته وطاقته، فإن كانت لديه سعةٌ يمكنه فيها القيام ببعض فروض الكفايات والنوافل فذاك، وإلا فعليه بالأولى فالأولى.

المرأة الحييّة ليست إنسانةً رجعيةً من عصرٍ آخر، ولا هي متخلّفةٌ مقهورةٌ مسلوبة الحقوق مسحوقة الكرامة، إنما هي الأنثى الحيّة التي تحمل انعكاس الحياة الكاملة والنقيّة، يقول ابن القيم رحمه الله "الحياء مشتقٌّ من الحياة، والغيث يسمى حيـًا لأنّ به حياة الأرض والنبات والدوابّ، وكذلك سميت بالحياة الحياة الدنيا والآخرة، فمن لا حياء فيه فهو ميت في الدنيا شقي في الآخرة."(1) إنهما إذاً مفهومان لا فكاك لأحدهما عن الآخر.

لقد تعلمت كيف تكون المسلمة حرّة وأنثويّة في آنٍ معـًا، لم أعد مضطرة لتورية هذا الجانب منّي كي أُفهم العالم أن قوتي تعدل قوة الرجال حين أسترجل تقليداً لهم.

لم أعد مضطرّة للاختيار بين الأنوثة المتبرجة السافرة، وبين الحياء والستر الخاليين من الأنوثة، فيمكن للمسلمة العفيفة الحيية أن تكون أنثوية، بل إن الحياء من أهم ركائز أنوثتها الكاملة، لا من حيث أثره على اللباس والشكل فقط، إنما في انعكاسه الفكري والخلُقي، في كل نظرة وكلمةٍ وحركةٍ تصدر عن الأنثى المسلمة، إنه فلسفة حياة وتعبير عن العالم الجواني للأنثى ونظرتها المتعالية للوجود.

الحياء يكاد يكون السمة الاكثر تعريفـًا لرسالة الإسلام ككل.

٣- الاستقلال :

أزعم أنني نجحت في التخلص من خرافات الاستقلال والتمكين، لم أعد أريد السير عكس ما تمليه عليّ جبلّتي وحاجاتي لأثبت للآخرين أنني حرةٌ أو مستغنيةٌ

---

(١) الداء والدواء، ص٩٦.

بذاتي عنهم، لم أعد أريد التظاهر بأنني قادرة على تدبير كل شؤون حياتي بدون أي أحد، لم أعد أصرخ بأن الرجل مخلوق لا داعي له في حياتي!

لم تعد قيمتي وحريتي ونظرتي لنفسي مرتبطةً بالحرص على نيل منصبٍ مهم أو وظيفةٍ مرموقةٍ تدرّ عليّ دخلاً عالياً يطمئنني ويكون البديل لي إذا ما دارت رحى الأيام وانفرط عقد زواجي.

٤- الاعتماد على الزوج:

إنني مطمئنةٌ مع إنفاق زوجي الكامل عليّ وعمله وحده خارج البيت لأجل أسرتنا، فبعد أن علمت دوري وثغري الحقيقي، لم أعد أرى في تلبيته لحاجياتي المالية نقصاً من قيمتي أو حطاً من قدري، أنا هنا في ميدان عملي الخاص، فلمَ أنافس غيري في ميدانه؟ ما الفائدة من مزاحمته؟

راحةٌ كبيرة في إنهاء كل المحاولات المضنية للتظاهر بأنني أستطيع فعل كل شيء وتحقيق كل شيء، أنا لست بحاجة لذاك التعب وطحن الذات حقيقةً.

وجود زوجي بجانبي وتولّيه لأمري وقيادته لأسرتنا الصغيرة بات مما يشعرني بالأمان، أنا مطمئنة لأن بإمكاني أن أتعب وأقول: إني تعبت، بإمكاني أن أضعف وأجد من أتكئ عليه، إنني ممتنة لوجود قوامته، قوته وصلابته التي تتيح لي القيام والتفرغ لوظيفتي التي ذرأني الله لأجلها، زوجي بعد الله هو ملاذ راحتي، سندي وحبيبي، ليس موجوداً ليكون نداً أو عدواً لي ولا لأشعر بالخزي من النقص الذي أجد اكتماله فيه، زوجي ليس المعيار الذي عليّ بلوغه لأحترم نفسي، بل هو رفيق دربي في رحلتي بذاتي وأسرتي إلى رضا الله، كما أنا رفيقة دربه هو.

٥- حرب الجنسين والزواج:

الحياة لم تكن يوماً حلبة مغلقة للصراع بين الجنسين، الرجال والنساء، الزوج والزوجة، لسنا في حرب لبقاء أحدنا دون الآخر، لسنا في منافسة!

الزوجة والزوج هما فريق واحد، كالشمس والقمر والليل والنهار، يكمل أحدهما الآخر ويعملان معاً حتى بلوغ الهدف المشترك، كلٌّ منهما يشد أزر الآخر للقيام بإنجازٍ حقيقي وجميل، هدف يستحق التعب، الجهد، الكد، والعمل الجماعي الموجّه، إنه بناء أسرةٍ مسلمةٍ تكون لبنةً صلبةً في هذه الأمة.

أنّى لهذا المشروع الممتد الجليل بالنجاح ونحن محرّضان ضدّ بعضنا؟ كيف إن كنا نتنافس ونتشاجر دون توقف؟ ما الحاجة للصدام إن كنا مضطرين إلى السير معاً؟ وما الحاجة لكل التعب ونحن ههنا نستطيع الانسجام والتعاون بكل طبيعية وبساطة؟

أنتِ كأنثى وزوجة تحتاجين فعلاً لزوجك وهو كذلك يحتاجك، وكل محاولة لإعادة كتابة دورك والوقوف في وجه طبيعتك وحاجاتك لن تؤدي إلا لمزيد من التوتّر ووجع القلب الفارغ، والثمرة لن تكون إلا تعاسة كل الأطراف بلا أي نفع.

٦- بين المهنة والأمومة.

لكم بتنا بحاجة إلى إزالة هذا التوتر الحاد الذي تمت صناعته وزراعته في قلوب نساء العصر الحديث، هذا التوتر المؤلم بين الخيارين الحصريين، بين المكوث في البيت كأمٍّ وسط أسرتها من جهة، وبين الخروج للعمل بحثاً عن الإنجازات "العظيمة" من جهة أخرى.

الأمومة ليست سجناً، بيتك ليس زنزانة تعيشين داخلها في ظلمة قاتمة مقيّدة اليدين، من قال ذلك؟!

وأنت أمٌّ يمكنك متابعة وتنمية هواياتكِ، يمكنك تذكية مواهبك ومهاراتك، تعلّم أشياء جديدة، واستكشاف إبداعاتك.. يمكنك فعل كلّ ذلك كأم، الأمومة ليست مهمة خانقة مستنزفة كما يتم رسمها لكِ.(١)

لكنها في الآن ذاته "كافية"، "التوقف" عندها و"الاقتناع" بها أمور عظيمةٌ لأنها مهمة سامية لا تستطيعها غيركِ، أن تكوني أماً لا يعني أنك تفتقرين للطموح والقدرات والمهارات، فهذا الوصف وحده يعني أنك تفعلين الكثير، وتسدين ثغراً عظيماً يمكنك الإبداع فيه ومعه بالتأكيد.

عالمنا الإسلامي يحتاج إلى المزيد من الأمهات اللواتي هنّ "فقط أمهات"، الراضيات المتفانيات والقائمات على هذه الأدوار "العادية" وهن يعلمن أنها من أكبر إنجازات البشر، تخيلي الأثر والتغيير الذي سيحصل في المجتمع بوجود مزيد من هؤلاء الأمهات اللواتي يستشعرن عظم عملهن.

إنني كأم في بيتها أشعر أنني هنا في المكان الصحيح لي، هنا أؤدي العمل الذي لديّ المقومات والمؤهلات التي تجعلني المرشحة الوحيدة المناسبة له.

---

(١) وهذه نقطةٌ مهمةٌ ينبغي التوقّف معها، فالثناء على الأمومة والتأكيد على أهميتها لا ينبغي أن يفهم كدعوةٍ إلى ترك طلب العلم أو استثمار العمر والوقت بحسب ظرف كل امرأةٍ ومسؤولياتها، فأنتِ كأمٍّ مسؤولةٌ عن وقتك وصحتك، ولا يليقُ بك كأمةٍ لله في هذه الأمة أن تضيع أيامك وسنين عمرك في صفحات الانستغرام أو المحال التجارية، بل اغتنمي وقتك الذي لديكِ بعد الفقه الحقيقيّ بما لكِ وما عليكِ.

من هنا أدعم زوجي، أدير بيتي، أربي وأرعى وأعلّم وأحاول أن أنشئ رجالاً على القيم الإسلامية القويمة، وتلك كلها مسؤوليات عظيمة، لا أرى عليّ أيّ شيءٍ أهم منها.

فهل سيكون من الحكمة نبذ هذا الثغر وراء ظهري وتركه لغيري من أجل مسؤوليات أقل شأناً منه؟ هل يعقل أن أضحي به لئلا تضيع شهادة هارفارد وسنينها "سدىً"؟

٧- القوة في الأنوثة:

الأنوثة لا ترادف الضعف والهشاشة والعجز ولا الغباء، بل إنها في الحقيقة لا تنفصل عن القوة، لكن طبيعة القوة في الأنوثة لا تشبه تلك التي في الرجولة، وعدم فهمي لهذه الجزئيّة البسيطة هو ما جعلني أنفث سنين عمري جرياً وراء نسخةٍ مشوّهةٍ أتخيّلها للقوّة، نسخةٍ مهترئة البنية عن قوة الذكور كما افترضتها وصوّرتها في داخلي.

لذا عملت جاهدة على قطع أي صلة تبعدني عن بلوغ هدفي، حاولت بكل طريقةٍ أن أبدو قويّة البنية حتى تجنبت التعبير عن مشاعري أو ارتداء ألوان وردية زاهية، آثرت عدم الجهر باحتياجاتي، فهذه الأشياء هي المحددات الوحيدة لعالم القوة كما فهمته.

أما الآن وبعد عقود مضت، فقد بتُّ على وعي بوجود معانٍ أخرى عظيمةٍ للقوة تفيض على جنبات الأنوثة وتزيّنها، هناك حيث الكلمات الأساسية هي: الحب، الود، الرعاية، الحكمة، الصبر، الحلم، القدرة على التحمل، العطف، ونعم، القوة البدنية أيضاً!

تأمّلي القوة البدنية والعقلية والعاطفية التي تلزم المرأة لتحمّل أوجاع المخاض والولادة، تلك قوّة لا يطالها الرجال مهما بلغوا من الشدة البدنية، ولطالما كانت كلّها جزءاً من تركيبة الأنثى بشكل طبيعي، هبة وعطية مجانيّةٌ من الله.

لكن مرة أخرى، فالأمر ليس منافسة بيننا أصلاً.

٨- هل الإسلام ضد النساء؟

إجابة سريعة: لا.

الإسلام ليس ضد النساء كما أنّه ليس ضد الرجال، وذاك محض اتهام لا أساس له من الصحّة وجّهته النسوية للإسلام واعتبرته اكتشافها الذي لا يلزمه أي إثبات، ثم حاكمت الدين كلّه بناءً عليه، فالله سبحانه وتعالى هو الحقّ العدل الذي لا يظلم مثقال ذرّة عباده ذكوراً كانوا أم إناثا، وهو جلَّ وعلا الذي حرّم الظلم على نفسه.

لكنّ هذا الاختلاف بين الجنسين -الذي قررت النسويّة ذات العقل الحدّيّ أنه غير موجود أو لا معنى له- هو من أهمّ مقاصد التسخير بين الخلائق، وبالذات بين الذكر والأنثى، فكلٌّ منهما يحتاج إلى الآخر كما خلقه الله بقوّة من هذا ورقّة من ذاك، صلابةٍ من هذا وسكينة من ذاك.

ليس منّا من هو كامل الأوصاف، ليس منّا من يمكنه الاستغناء عن الآخرين، وبالتالي سيظل القسم الناقص منا دومـًا يبحث عن كماله مع الآخر، فالحاجة فينا لبعضنا ليست ضعفـًا ولا عجزاً، بل هي ببساطة حكمة الله وإرادته في الخلق، الله الذي صورنا على طبائع وهيئات مختلفة تناسب تمامـًا وبشكل عجيبٍ الأدوار التي عهد إلينا بها.

ولـذلك فـإن أي محاولـة للتمـرد والـرفض لطبيعتنـا المتفـردة، ستسـلمنا حتمـًا لحبائل الحزن والتعب.

٩- لا خوف ولا قلق، لكن توكل فقط:

لعـل مـن أبـرز مـا نجحـت النسـوية في اللعـب عليـه ومـلء العقـول بأهوالـه هـو الخوف.

لقد ملأت قلوب النسـاء ببـذور الخـوف وعـدم اليقـين وسـوء الظـن في الرجـال والقلق من المستقبل، ثم تولّت إلى الظل وتركتهن للتّخبّط والتساؤلات المضنية التي لا تنتهي، كلّها على شاكلة: "ماذا لو؟"

ماذا لو تركني زوجي؟ ماذا لو خانني؟ ماذا لـو تبـيّن أنـه سـيّء الخلـق وتفـنن في إهانتي؟ ماذا لو مات؟ من سيعينني لحظتها؟ هـل سـأعيش بعـده شـريدة بـلا طعـام أو مأوى؟

أسئلة كلها تنجلي وتنقشع سحبها بالتوكّل.

فالتوكّل على الله هو الإجابة والترياق لكل علامات الاستفهام تلك.

الحياة مليئـة بـالمجهول والمخـاوف والشـكوك، لا ضـمانات فيهـا، ولا مجـال لاتخاذ أي قرار بلا بعض المخـاطرة بــ"مـاذا لـو؟"، وهـذا دأب الـدنيا، إذا صـح منهـا جانب لم يسلم آخر، إنها في أساسها دار اختبار لا دار قرار ولا نعيم.[1]

---

(١) فطالب الجامعة يخاطر كلّ يومٍ بأن جامعته قد تغلق أبوابها وقـد تفقـد ترخيصـها وقـد تـذهب الأمـوال والأوقات التي صرفها فيها سدى، والمريض الـذي يـزور الطبيـب قـد يغـرق بالشـك إن تخيّـل مقـدار الكـذب الـذي يمكـن للطبيـب أن يمارسـه بحقـه، والمـرأة العاملـة تعلـم أنهـا قـد تُطـرد مـن عملهـا، =

لكن إحسان التوكل على خالقنا الذي بيده الملك والأمر كله، المطّلع والرقيب الذي لا يعزب عنه مثقال ذرة في السماوات والأرض ولا أدنى من ذلك هو ما يهوّن المصاعب والكروب مهما اشتدت بتذكّر عظم الأجر والتطلّع لفجر الآخرة.

فاطمئني وانسي بربّك، ولا تسمحي لتجارة الخوف النسوية أن تزعزع في قلبك طمأنينة الكفاية بالله.(١)

= والزوج كذلك يتوكّل على الله ليطمئن ناحية حياته الزوجية ويرتاح مع وجود احتمال أنها قد تفشل، فقد يدخل الشيطان بينه وبين زوجته فيفسدها عليه، وقد تقرر الانفصال عنه وحرمانه من أطفاله، فوجود احتمالات الخسارة مع كل قرارٍ يتخذه المرء وفي كلّ يومٍ من حياته مما لا مهرب منه إلا أن يبقى الإنسان حبيس القلق في غرفة مغلقةٍ لا يخرج منها في أي اتجاه.

(١) هل يعني هذا ألّا نأخذ بأي أسباب؟ هل يعني أن نتجاهل التفكير بالمستقبل؟ هل التوكل هو السذاجة مع الواقع والتعامل بوردية حالمة مع ما يمكن أن يحدث فعلاً؟ فالمؤمن يأخذ بالأسباب ومن ثم يتوكل، صحيح؟

الأخذ بالأسباب مهم وضروري، ولكن هل الأخذ بالأسباب يفرض على كل أم أن تعمل خارج بيتها وتحافظ على وظيفتها في كل مراحل حياتها لأنها قد تصير مضطرة إليها؟

هذا هو الإشكال الذي تعالجه الكاتبة.. لأن الأخذ بالأسباب يبدأ من تربية نفوسنا وأبنائنا وبناتنا على معنى العبودية الحقيقي، على هدف الحياة، على التوقعات الواقعية منها، على معنى الزواج، على كيفية اختيار الزوج ومعاييره ومساعدتهم فيه (مهم جداً)، على حقوق الزوجة على زوجها وحقوق الزوج عليها، على معاني الأنوثة والرجولة والأبوة الحقيقية، وعلى شرع الله فعلاً.

وهذا يحتاج علماً وعملاً كثيراً، فحل مشكلات المجتمع ليس بتركه على فساده واستيراد الحلول الفاسدة له من الخارج، لكن بإصلاحه ذاته وإعادته لشرع ربه ..

من الأسئلة المهمة هنا، ماذا يقول شرع الله في نفقة الأرملة؟ ماذا عن المطلقة؟ ماذا إن كانت مطلقة ويتيمة؟ كيف نجعل أسرنا متراحمة أقرب إلى الله تحيا شرعه في كل دقائقها وتحتكم له؟ من هي النماذج والصحبة الصالحة التي نحتاج لإحاطة أبنائنا وبناتنا بها؟ كيف عاشت الصحابيات والتابعيات والصالحات، وكيف يمكننا السير على نهجهن؟ هل نأخذ أحكامنا وتوقعاتنا من المسلسلات وكلام الناس؟ =

١٠- عزتنا بالإسلام :

هويتنا هي الإسلام، إننا مسلمات إماءٌ لله ولسنا نِسويات، هذا هو انتماؤنا وبه نفتخر ونعتز.

لسنا بحاجة لطوق نجاة من صنع أيدٍ علمانية ملحدة لينقذنا من تخلفنا ورجعيّتنا، لسنا بحاجة للسير نحو الاستنارة الكاذبة في درب غيرنا.

إننا مسلمون بين أيدينا نظام كامل شامل من صنع الله سبحانه، لدينا الدين الذي فيه تكمن كل العزة والسعادة والكرامة، فتلك الأفكار المظلمة لن تقدم لنا شيئًا جديداً أكثر من رمينا في غيابات الحيرة وظلمة الشكوك والبعد المؤلم عن أنوار الوحي وصفاء الفطرة.

نحن مسلمات، لدينا الإسلام وكفى.

= كيف نتعامل كأمهات وآباء مع فكرة الزواج؟ هل نشعر البنت بأن الزواج هو نهاية علاقتها بأسرتها؟ هل يتم التعامل كذلك فعلاً؟ وإن كان فهل الحل هو إرهاقها هي بالعمل الذي لا تحتاجه، أم بإصلاح نفوسنا وتهيئتها للقيام بواجبها؟

وبعد هذا كله ومعه لا بد من فهم التوكل وجعله المحور، فنحن لن نضمن المستقبل مهما فعلنا، لن نمسك زمام الحياة مهما أرهقنا نفوسنا، مساحة المجهول لن تختفي، إلا أننا هنا كما في كل سياق آخر، نجتهد ونعمل ونتوكل على الله.

قد تمتلك الأنثى مهنة وقد لا تفعل، وهذا معتمد على ظروفها هي وطاقتها وقدراتها ومسؤولياتها، لكن المهم هو فهم تعاريف الأمور وحقائقها وأسبابها ودوافعها، والتمييز بين المباح وبين الممنوع وبين الاضطرار وبين الواجب.

وختامًا.

الآن وبعد أن ابتعدت بنفسي عن تأثيرات النسوية وسهامها، اطمأن قلبي وارتاحت نفسي.

لم أعد مدفوعة لرفض حقيقتي ولا لصراع ذاتي أو غيري، كل ما عليّ فعله هو السعي لأن أكون أنا، أنا كما خلقني الله وصورني؛ أنثى، أمة له، زوجة، أمًا ومربية، كلّها اشياء تعكس فطرتي، وقيمتي التي لا تُقاس بالمعايير الدنيوية وأبعادها المادية، لأن الموعد الحقّ أمامي هناك: على أعتاب الآخرة.

والحمد لله..

* * * *



الحمد لله الذي وفقنا لإتمام ترجمة المقالات وجمعها، أسأله سبحانه أن يجعلها نوراً لكل فتاةٍ تصلها، وهمسةً رقيقةً تخبرها بأنّ الذي قد تمرّ به وتختبره ليس نهاية الحياة ولا هي دوّامةٌ لا مهرب منها من الآلام، فهناك سبيلٌ للهناء، طالما في العمر بقية والنّفَس مازال يخرج منا ويدخل، فهناك فرصة لنكون أفضل.

أنتِ يا أختي مهمّةٌ وذات قيمة ودورٍ وأثرٍ في هذه الأمّة، أنتِ فردٌ قادرٌ على الكثير ويعني الكثير، أنتِ نفسٌ إنسانيةٌ أقسم الله بها، أمةٌ لمالك الملك سبحانه من نسل آدم الذي خلقه جلّ وعلا بيده، فردٌ في أمّة محمّدٍ صلى الله عليه وسلّم التي تهاجمها الفتن وتسرق أبناءها وتلتهم أفكارهم.

لذلك كلّه أكرّر لك أن لا تستهيني بنفسك، عمرك أثمن من أن يهدر في طريقٍ لم تختاريه ولا تعرفينه، سكينتك وراحتك ليست أضحية رخيصةً في سبيل شعارات زائفةٍ يبيعونها في المحافل والاجتماعات، فاسمعي صوت نفسك، توقفي مع ذاتك واسأليها، لماذا أفعل هذا الذي أفعله؟ لماذا أغضب من هذا وأفرح بذاك؟ لماذا أخاف مما أخاف منه؟ هل سمحت لمن لا يأبهون بي أن يرسموا أحلامي؟ هل تركتُ بضع سيّداتٍ مريضاتٍ أو رجالٍ مختلّين يقولون لي ما ينبغي أن أكونه؟

وإن ضايقتكِ كلماتٌ وردت هنا، أو أشعرتكِ بالرغبة بإغلاق الكتيّب والهروب لهاتفك فلا بأس، خذي استراحةً، لكن عودي لنفسك، اعلمي أن ضيق

النفس هذا علامة خيرٍ وحياة مزهرةٍ تنتظر الظهور داخلكِ، فافتحي لها الباب، تحمّلي بعض العتاب المؤلم الذي قد يصدر منها، ثم اعملي على ما فيها.

عليكِ أن تختاري ما تريدينه وما تفعلينه وما تدعينه، احذري أن تكوني ورقة شجر تحملها الرياح إلى حيث لا تعلم، تنبّهي إلى السّيل الذي يكاد يجرفك دون أن يعرفكِ ولا يهمّه إلا وزن جثّتك في أحماله، أنتِ يا عزيزتي مهمّة، أنتِ ذات قرارٍ وإرادة، والله الذي منحكِ هذه الدقائق وهذا القلب سيسألكِ عنها.

❋ ❋ ❋ ❋



أم خالد

وُلِدت أم خالد في مصر وانتقلت منها إلى الولايات المتحدة الأمريكية في سنٍّ صغيرة. حفظت القرآن في سنٍّ صغيرة ودخلت جامعة هارفارد التي حصلت منها على البكالوريوس في الأنثروبولوجيا مع تخصص بمناطق الشرق الأوسط وقد تخرّجت مع مرتبة الشرف.

عملت مرشدة في جامعةٍ نسائيةٍ في بريطانيا حيث كانت تعلّم التجويد وتشرف على حلقات تحفيظ القرآن.

أم خالد أمٌّ لأربعة أطفالٍ تعلّمهم منزليًا باستخدام منهجٍ مستقىً من القرآن وضعته بنفسها، حيث تركّز فيه على التربية الإسلامية وغرس العقيدة الصحيحة، وهي تقدّم مواداً في الزواج، التربية، التعليم المنزلي، ونمو اليافعين ضمن موضوعات متفرّقةٍ أخرى.

أم خالد متزوجة من الأستاذ دانيال حقيقاتجو مؤسس معهد ألسنا / Alasna Institute المتخصص في تقديم دوراتٍ ومواد للمسلمين ليواجهوا الشبهات ويقوّوا إيمانهم.

تسنيم راجح

ابنةٌ وأختٌ وزوجة وأم لثلاثة أبناء، درست الصيدلة لعامَين في الجامعة العربية الدولية في سوريا، والعلم الشرعي لعامٍ في كلّية الشريعة بجامعة دمشق، ثمّ حصلت

على شـهادة البكـالوريوس في التغذيـة والحميـات مـن جامعـة لاسـال في فيلادلفيـا وتخرّجت حاصلةً على الجائزة الأكاديمية للبرنامج.

أنهت الماجستير في التغذية الطبية العلاجية من جامعة سانت لويس في ميزوري مع تركيز على تغذيـة الأطفـال والرضّـع، وهـي حافظـةٌ للقـرآن الكـريم وتطلـب العلـم الشرعي وطالبةٌ في مدرسة فقه النفس.

تبحث وتكتب في نقد الحداثة ومـا بعـدها والتغريـب وقضـايا المـرأة المسـلمة، وفي تعزيـز اليقـين ورد الشـبهات، وقـدمت مـواداً في فقـه التفكيـر والعقـل انطلاقـاً مـن الوحي، وكذلك في الأنوثة والشبهات النسوية وما يتعلق بها.

كوثر الفراوي

وُلِدت كوثر في المغرب العربي وتقيم فيـه، خريجـة المعهـد العـالي للتمـريض وتقنيات الصحة، تخصّص حفظ الصحة والبيئة، طالبة في حِلق حفظ القـرآن الكـريم، مهتمة بتحصيل العلوم الشرعية وتشغل منصب مراقِبةٍ صحية.

والحمد لله رب العالمين

مؤسسة السبيل

٢٠٢٢

رحلةٌ طويلة خاضتها كاتبتنا..

◄ من طفولتها البسيطة إلى مراهقتها الطائشة وحتى باتت امرأة أماً وزوجةً مربّية مرّت بكثيرٍ من التناقضات والتخبّطات والارتباكات..

في هذا الكتيّب نسافر مع صديقتنا القريبة البعيدة عبر محطّاتٍ وتساؤلاتٍ كثيرة وهي تكتشف ذاتها في عالم يريد كلّ شخصٍ فيه وكل مكانٍ منه أن يخبرنا من نحن وإلى أين ننتمي وماذا نريد أن نكون، المسلمة ذات الأصول العربية؟ أم الأمريكية الليبرالية؟ طالبة الثانوية المتمردة؟ أم المرأة الحرة المستقلة؟

نرى كاتبتنا هنا تكبر وتنضج مع كلّ صفحة، تجد إجاباتها وتدفعنا للسؤال عن إجاباتنا..

تقول بكلّ بساطةٍ أنها نِسوية سابقة تقدّم اعترافاتها وتحكي جانباً من قصتها..

لكن ماذا عنا نحن؟ ما هي القصة التي نريد أن تكون قصتنا؟ وما النهاية التي سنسعى نحوها في كتابنا؟

هذه وغيرها من التساؤلات تشعلها في نفوسنا هذه المقالات القصيرة، والله أسأل أن ينفعنا بها ويبارك في كل كلمة نقرأ منها..

